تأملات إيمانية

obeikandl.com

obeikandl.com

المُقَدِّمَة

الْحَمْدُ للهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِ الله ﷺ.

ثمّ أمّا بعد:

فـإنّ التفكر من العبادات الجليلة التـي قد أهملت في هذه الأيام، ولا حول ولا قوة إلا بالله، رغم عظيم نفعه، وفضله، فهذه تأمّلاتٌ إيمانية قد سجلتُها عسى أن تكون سببًا لتجديد هذه العبادة العظيمة في قلبي وقلوب إخواني المسلمين... ولكنّي أنبّه تنبيهًا هامًّا قـد يخطأ فيه البعض، وهو أنّ التفكر لا يشـترط له تخصيص وقت معين أو المداومة عليه في كل حـين ووقـت بل يكون حسـبما يتيسر، فمثلًا: سـنذكر ماذا يسـتحضر المؤمن عند وضوئـه أو عنـد ركوبه المواصلات أو عند شـدة الحر، فلا يشـترط أن يتفكر في هذا كلّما توضأ أو ركب المواصلات، فربما كان مشغولًا في هذه الأحيان بمراجعة مسألة فقهية، أو في التفكير في حكم فقهي، أو في قراءة القرآن، ولكن معرفته بما يستحضره يفيده أنّه متى أراد أن يتفكـر علـم في أيّ شيء يتفكر، وكذلـك إذا وجد فتورًا عن العلم أو العبادة مثلًا اسـتطاع استغلال الوقت في طاعةٍ لله، فينبغي التنبه لهذا، فالتفكر والبال مشغول لا يكاد ينفـع كـما أنّ الانشـغال به وترك العبادات الأخـرى يضيّع أثره في القلـب، وخير الأمور الوسـط، والمؤمـن كيّس فَطِن يعلم متى ينتفـع بالتفكر، ومتى يكون غـيره من العبادات أولى منـه، ولكن ليكثر المرء من ذكر الموت لقوله ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

وكتبه

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري

obeikandl.com

الفَصْلُ الأَوَّلُ

فضل عبادة التأمّل والتفكر

١- هو سمة أولي الألباب من المؤمنين والمحسنين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

قال الحسن: إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم، فنطقت بالحكمة، وسئلت أمّ الدرداء عن عبادة زوجها، فقالت: «كان أكثر شأنه التفكر»، وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرتُ في ذهاب عمري وقلّة عملي واقتراب أجلي، وقال عبد الله بن المبارك لسهل بن عليّ، ورآه ساكنًا متفكرًا: أين بلغت؟ قال: الصراط، وكان لقمان يطيل الجلوس للتفكر، فقيل له في ذلك، فقال: التفكر دليلٌ على طريق الجنّة، وكان داود الطائي على سطح في ليلةٍ قمراء، فتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وهو ينظر إلى السماء حتى وقع في دار جارٍ له، وقال: ما شعرتُ بذلك.

٢- أنّه فريضة بعد الفريضة، وواجبٌ على من بلغته الآيات، فقد قال ابن عباس: «التفكر فريضة بعد الفريضة»، ولمّا نزلت آيات آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، قال الرسول ﷺ: «**ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها**».

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ (عبس: ٢٤-٢٦)، والأمرُ للوجوب، ولام الله من لم يتفكر فقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ

﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (الغاشية:١٧،١٨)، وأمر به فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:٥).

٣- أنّ التفكر سببٌ كبيرٌ لزيادة الإيمان في قلب العبد، فهو من أجلّ العبادات، وقد قال الحسن وابن عباس: «تفكرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة»، وكان سفيان بن عيينة كثيرًا ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ ... ففي كل شيء له عبرةٌ

وقال الحسن: من لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو.

وقال وهب: ما طالت فكرةُ امرئٍ قط إلّا علم، وما علم امرؤٌ قطّ إلّا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عزّ وجلّ من أفضل العبادة.

وقال أبو سليمان: عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر، وقال أيضًا: الفكر في أمر الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب.

وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن التفكر يزيد الخوف، ومن الذكر يزيد الحب.

وقال الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة.

٤- أنّه سببٌ لاستغلال الوقت على الدوام، فربما ملّ العبد من العبادة، وربما وجد فتورًا عن العلم، ففي شغل الفكر بالاعتبار استغلالٌ للوقت وعبادة في نفس الوقت.

٥- أنّه سببٌ للتجارة الرابحة مع الله، فالتاجر في الدنيا إن لم يراجع حساباته والمكسب فيها والخسارة ضاعت تجارته، وكذلك التاجر مع الله لابد له من مراجعةٍ لحساباته وكشف أعماله بأن يتفكر في الحسن والسيئ عساه أن يستدرك ما فات.

قال الفضيل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، وقال بعض الحكماء: التفكر في الخير يدعو إلى فعله، والندم على الشر يدعو إلى تركه.

obeikandl.com

الفصل الثاني
منهاج السُّنّة في عبادة التفكر

المتأمّل لحال النبي ﷺ في أقواله وأفعاله يجد منهجًا تربويًا عظيم النفع، يكون فيه التفكر مقترنًا بالعبادة ممّا يجعل للعبادة عظيم الأثر في صلاح القلب وتهذيب النفس، ولا يظنّن ظانّ أنّ النبي ﷺ إذا دعا بدعاءٍ، أو أثنى على ربه بذكرٍ، أو علّم أحدًا من أصحابه ذكرًا أو دعاءً أنّ ذلك مجرد دعاءٍ يُدعى به أو ذكرٍ يُقال، بل الأمر بذلك الذكر أو الدعاء يتضمن الأمر بالتفكر والتدبر فيما يحمله ذلك الذكر والدعاء من معانٍ، فقد قال ﷺ: «**إنّ الله لا يقبل الدعاء عن ظهر قلب غافلٍ لاه**»، والذكر مثل الدعاء في ذلك، فقوله ﷺ بين السجدتين في كل ركعة من ركعات الصلاة: «**رب اغفر لي.. رب اغفر لي**»، يتضمن الحث على دوام تذكر العبد لسيئاته؛ لأنّ استغفار مَنْ نسي ذنوبه وتذكر حسناته، إنما هو عملُ لسان، والاستغفار الحقيقي ما كان من قلبٍ نادمٍ مشفقٍ، ولا يكون ذلك إلّا من عبدٍ أكثر من ذكر سيئاته، واستحضر في قلبه هول العذاب، وكلّما زاد ذلك في قلبه كلّما زاد خشوعه وإنابته في استغفاره، فالأمر بالخشوع في الصلاة إذًا يشمل الأمر بذلك.

كما أنّ قوله ﷺ في كل ركعةٍ بعد الرفع من الركوع: «**ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه**» يتضمن الحث على دوام تذكر العبد لنعم ربه عليه، فإنّ حمد مَنْ استحضر عظيم فضل ربه مع تقصير نفسه هو الحمد الحقّ، بخلاف من حَمِد بلسانه مع غفلة قلبه عن ذلك، فالأمر بالخشوع في الصلاة أيضًا يتضمن الأمر بذلك، وكلّما أكثر العبد من تفكره في نعم ربه عليه، وتقصيره في حقِّ ربه، كلّما كان حمده من قلبه حقًا.

كما أنّ دعاءه ﷺ كلّ ليلة قبل نومه: «**ربِّ قِني عذابك يوم تبعث عبادك**» يتضمن الحث على دوام تذكر العبد لأهوال يوم القيامة، وتفكره في عظيم عذاب الله الوارد في الكتاب والسُّنّة، فإنّ القلب الغافل عن التفكر في ذلك، لا تكاد تكون استعاذته حقيقية، ولا خوفه، بخلاف من أكثر من التفكر في ذلك من خلال تأمّله في آيات الكتاب والسُّنّة.

كما أنّ قوله ﷺ في كلِّ صباحٍ: «**يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كلّه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»، إنّما هو دعاء عبدٍ يأس من نفسه، ووثق في ربه وحده، فهو يعلم ألّا قدرة له على الطاعة إلّا بالله، وأنّ كل ما وُفِّق فيه من الطاعات إنّما هو بفضل الله، ولو وكله إلى نفسه طرفة عينٍ لهلك.

كما أنّ مداومته ﷺ على الاستغفار دبر كل صلاةٍ مكتوبة ثلاثًا، إنّما هو استغفار عبدٍ أيقن قلبه بتقصيره في حق ربه، وأنّه لم يوفِّ ربه حق عبادته، وهذا مع عظيم اجتهاده ﷺ، فكيف بنا ؟!! وقد قال ﷺ: «**واعلموا أنه لن يدخل أحدٌ منكم الجنّة بعمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا، إلاّ أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل**»، وتأمّل قوله لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، لمّا سأله أن يعلّمه دعاءً يدعو به في صلاته، فقال له: «**قل: اللهمّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**» (متفق عليه).

وقس على هذا في كل أدعية وأذكار الكتاب والسُّنّة، وعسى أن أزيد من توضيح ذلك ـ إن شاء الله ـ في كتابي عن الخشوع في الصلاة.

كما أنّ قراءته ﷺ لآيات القرآن يتضمن التفكر والتأمّل في معانيها، وفيما ترشد إليه، حتى أنّه كان يكرِّر أحيانًا بعض الآيات، وربما قام ليلةً كاملةً بآيةٍ واحدةٍ يردّدها، وبمداومة العبد على ذلك مع اطلاعه على أقوال المفسرين وأقوال الزهاد من

أهل السُّـنّة في المعاني الإيمانية للآيـات، بمداومته على ذلك كلِّه يزداد إيمانه وتقوى أعمال القلوب في قلبه.

كـما أنّه ﷺ كان يتفكر في ملكوت السـماوات والأرض، وعظيم خلق الله، كـما صـحّ عنـه ﷺ حـين اسـتيقظ مـن الليـل وجعـل ينظر إلى السـماء، ويـردد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٩٠-٢٠٠).

الفصل الثالث
التفكر في الأعمال اليومية

١ - إذا استيقظ العبد من نومه استحضر أنّه ربما مات في نومه، وقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢)، ولكن الله مدّ في عمره عساه أن يتوب ويعمل صالحًا، فليحمد الله على هذا، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» (رواه البخاري)، وكان يقول أيضًا: «**الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورَدَّ عليّ روحي، وأذن لي بذكره**» (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

إخواني... كم من رجل نام على المعصية فمات في نومه... فمن أمدّه الله منكم بيوم فليعمل صالحًا... وإلّا كان يومه كعدمه...

٢ - فإذا قضى حاجته فليعرف حقيقة الدنيا، فهذا هو طعامه وشرابه الذي كان ينافس عليه ويطلب الحرام من أجله هذه هي صيرورته، فليستحضر قذره عسى أن يُزهِّده ذلك في الدنيا، وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: «**إنّ مطعم ابن آدم قد ضُربَ للدنيا مثلًا؛ فانظر ما يخرج من ابن آدم ـ وإنْ قزَّحَه ومَلَّحَه ـ قد علم إلى ما يصير**»، وعساه كذلك ألّا يتكبر، فكيف يتكبر من كان يحمل في بطنه هذا القذر؟!!

٣- فإذا توضأ أو اغتسل استحضر كيف يهتم بغسل بدنه ظاهرًا ولا يهتم بغسل قلبه باطنًا، عجبًا لك يا ابن آدم... يؤذيك نتن العرق... ولا يؤذيك كون قلبك في الشهوات غرق... وسخ البدن يزيله الماء وهو يسير... ووسخ القلب تزيله التوبة وكمالها عسير...

٤ - فإذا ذهب ليصلي الصبح في المسجد واستنشق نسيم الفجر، فليتذكر الجنّة، فقد قالوا: كل أوقاتها كنسيم الفجر، فإذا دخل المسجد استحضر أنّ المسجد بيت الله ولا

يليق بمنكر نعمة الملك أن يدخل بيته، فلولا وجوب الجماعة لما لاق بمثله أن يدخل بيت الملك سبحانه، وفي الأثر: «أن رجلًا من بني إسرائيل همّ بدخول المسجد فقال في نفسه: أومثلي يدخل بيت الله؟ فأوحى الله إلى نبي قومه أن قل له: إن الله قد كتبك في مقامك صديقًا» (رواه أحمد في كتاب الزهد).

إخواني... المسجد بيت الأطهار... فأيكم تطهَّر من الأوزار... ومع ذلك فدخول المسجد واجب، والله هو الغفار...

٥- فإذا كان في المسجد مع إخوانه، فليحذر أن يرى لنفسه فضلًا على أحدٍ من أهل المسجد، فهل يعلم أحدكم من ذنوب الناس مثل ما يعلم من نفسه؟

٦- فإذا أقيمت الصلاة وقال الإمام: استووا، فليبك قلبه كيف يستوي البدن والقلب على غير الاستقامة... دخل رجل ليؤمّ الناس فقال: استقيموا فبكى وقال: «تذكرتُ أنّ قلبي ما استقام بعد».

٧- فإذا انتهى من صلاته استحضر كذبه وتقصيره؛ أمّا كذبه فقد قال في صلاته «الله أكبر» وما كان هذا حاله، فكم فضّل الدنيا على طاعة الله؟ وكم غاب بقلبه أثناء الصلاة عن الله؟ وأمّا تقصيره فلكثرة سهوه في صلاته وقلة خشوعه، فجدير بمن هذا حاله أن يبادر بعد الصلاة بالاستغفار، ولذلك كان أول ما يبدء به الرسول ﷺ بعد صلاته الاستغفار. ثم ليجتهد في تدبر أذكار ما بعد الصلاة عسى أن يعوض نقص صلاته.

٨- إذا شمّ رائحة القمامة (الزبالة) أو رأى المياه النجسة (كالمجاري ونحوها) طار قلبه خوفًا ورعبًا، فطعام أهل النار أشد نتنًا وقذرًا، فكيف يأكلونه؟؟

٩- فإذا مرّ بخبّاز أو حدّاد أو شعر بحرارة الشمس، فليتذكر النار وحرّها كيف يحتملها أهلها؟

إخواني... نار الدنيا أذابت الحديد... فكيف بجسم الآدمي الضعيف؟!

١٠- فإذا شعر بالبرد الشديد الذي لا يكاد يُحتمل حتى مع الملبس؛ استحضر زمهرير جهنم، وفي الحديث: «**اشتكت النار وقالت: أكل بعضي بعضي فأذن الله لها بنفسين في الشتاء والصيف، فأشدّ ما تجدون من البرد في الشتاء فهو من زمهريرها، وأشدّ ما تجدون من الحر في الصيف فهو من حرها**» (رواه مسلم).

١١- فإذا ركب الدابة (وسيلة مواصلات) استحضر كيف سخرها الله له ويسرها، ثمّ ليستحضر بمرور الوسيلة وجريها مرور الزمن وجريه... فالعمر ينقضي وما مرّ منه لا يعود، وقد أشار القرآن إلى استحضار ذلك عند ركوب الدابة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ (الزخرف: ١٢-١٤)، فتأمّل قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ (الزخرف: ١٤)، أي: راجعون، فجعل السفر والانتقال في الدنيا مُذكِّرًا بالسفر والانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وفي الحديث: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» (رواه البخاري).

إخواني... ليكن أحدكم في الدنيا كالمسافر... لا يستقر في بلدٍ إلّا ليأخذ المؤنة حتى يصل إلى بلده المقصود، فلا تأخذوا من الدنيا إلّا ما يبلِّغكم وليكن سعيكم من أجل الآخرة... أيكم إذا سافر أخذ أثاث بيته معه وهو يثقله؟؟؟ فأنتم في سفرٍ إلى الآخرة فلِمَ يحمل أحدكم من الدنيا ما يثقله... الغريب في بلده لا يخاصم ولا يشاتم... فما بالكم على الدنيا وهي دار الغربة تتنافسون وتتخاصمون؟؟ أيكم يقضي في بلد السفر كلّ الوقت؟؟ فما بالكم تنشغلون بالدنيا كلّ الوقت؟؟

obeikandl.com

١٢- فإذا أكل أو شرب استحضر نعمة الله، فكم ممن لا مأكل له ولا مشرب له ولا ملبس له ثمّ ليستحضر أنه قليل الشكر كثير العصيان، فليَعُدْ باللوم على نفسه عسى أن يكون ذلك سببًا في حيائها من ربها، ولو داوم العبد على استحضار كذلك لما عاب طعامًا ولا بالغ في الأكل بل يكون أكله على استحياء من ربه.

١٣- فإذا أخذ المضطجع لينام استحضر حرمان كثير من الناس من نعمة المسكن فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي له ثمّ ليلم نفسه كيف ينام وسيده وخالقه لا ينام؟!! فمن سوء الأدب نوم الخادم قبل مخدومه، فحينئذٍ يكون نومه على عجالة وللحاجة لا كسلًا وترفًا، ثمّ ليستحضر النوايا الصالحة حتى لا ينقطع عنه العمل بنومه.

١٤- فإذا لبس ملبسه وراعى نظافته وحُسنه، فليستحضر أنه لم ينظف قلبه بعدُ، فكم من مبيضٍ لثيابه مدنسٍ لدينه... وكم من نظيف الثياب وسخ القلب!! ثمّ ليحمد الله على نعمة الملبس وليدع لإخوانه الفقراء.

١٥- فإذا وقف مع جمعٍ من الناس لشراء خبزٍ أو أيّ مشترىً آخر، وكذلك إذا انتظر غائبًا طويلًا، فليتذكر بذلك كلّه حال الناس يوم القيامة، وهم موقوفون ينتظرون تلقّي الكتب والعرض للحساب.

١٦- فإذا أكل طعامًا طيبًا تذكر ما في الجنّة، فعن بعض السلف أنه كان إذا مرّ بما تشتهيه نفسه قال: «إني لأشتهيك ولكن موعدنا الجنّة». وكذا لو مرّ ببستان أو مكان طيب تسعد فيه نفسه ليذكِّر نفسه بالجنّة ليشتاق إليها ولتزهد في الدنيا ولا تتكالب عليها.

الفصل الرابع
تأمّلات إيمانية عامّة

علم الله بقلوب عباده:

١ - حدثتني نفسي يومًا باستشكال حديث: «**من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ومن تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه**»، وقالت: كيف تقبل توبتهم بعد انغماسهم في المعاصي والشهوات؟

فقلت لها وقتها: هذه رحمة الله والله غفور رحيم وعسى أن يكون في الأمر شيء لا تعرفينه ثمّ بعد فترةٍ ما وجدتُ أناسًا بلغ أحدهم ما يقارب التسعين وأصيب بسرطان وهو لا يرتدع ولا يتوب بل لا يزال يحلّ ما حرّم الله على حسب هواه، ورأيت ملوكًا ابتلاهم الله بأمراض سرطانية مع بلوغهم ما يقارب الثمانين ومازالوا يؤمِّلون في الحياة كأنهم لن يموتوا وكأنهم خالدون، فقلت: سبحان الله كيف انعدم الخير من قلوبهم وإلّا فماذا ينتظر هؤلاء من الحياة، والموت قريب جدًا منهم؟؟

فحينئذٍ قالت نفسي: نعم والله ما وفَّق الله غيرهم للتوبة في سنّهم أو قبله إلّا لخيرٍ في أنفسهم علمه الله بهم، فتاب عليهم وألهمهم التوبة، فسبحان من علم بقلوب عباده.

فوائد القيام بحقوق الأخوّة:

٢ - زارني بعض أصدقائي لأقضي له حاجة وكنت وقتها مشغولًا بكتابة مسائل، فشعرتْ نفسي بالتضايق الشديد وودَّت أن لو انصرف سريعًا ووجدت نفسي كذلك لا تكاد تحضر الأفراح والولائم بزعم المحافظة على الوقت فقلتُ لها لابد أن يوجد بلاء لك بزيارات الإخوان وحضور أفراحهم فابحثي عن نوايا وفوائد عساك أن تُقبلي بهمّة على هذه الأعمال فوجدت الآتي:

(أ) أنّ هـذه الأشـياء في الحقيقة اختبـار لمحبة الله في قلب العبـد، فالعبد إذا أحب العلـم أو العبـادة صـارا هما حـظ النفس، ولكـن حضور الولائـم والأفراح ومشـاركة الإخـوان مشـاكلهم هو مراد الـرب، فمن فعل ما يحبـه الله كان محبًـا لله، ومن ترك ذلك لم يكـن محبًـا للعلم ولا للعبـادة في الحقيقة بل يكون محبًا لنفسـه، فقلتُ لنفسي: فإن كنت تريدين الوصول إلى محبة الله فهذا طريقك.

(ب) ثمّ يا نفس هبي أنك وقعت في مشـكلة أو عقدت وليمة أو فرحًا أما تـحبين من الناس أن يحضروا؟ فمـا لا ترضين لنفسك لا ترضيه لغيرك وإلّا كنتِ أنانية.

(جـ) ثمّ في حضورك للأفراح والولائم ومشاركتك في حل المشاكل نفع وخير وفي الحديث: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس**» (رواه ابن أبي الدنيا وحسنه الألباني)، بل هذه وسيلتك للإخلاص بأن تعملي ما لا تحبين ابتغاء مرضات الله.

(د) ثـمّ في هذا اختبار لصفة الكرم والجود والسـخاء وسـماحة النفس، فهذه طباع لا تظهـر إلا بالاختبار، فإن عاملت الضيف أو من زارك بهذه الأخلاق الطيبة فبها ونعمت، وإلّا فليست هذه الأخلاق الكريمة من أخلاقك فحاولي أن تتخلقي بها.

مراقبة العبد لربه:

٣- ركبـت يومًا سـيارة أجرة فوجدتُ مكتوبًا على الطريق لافتـة «احترس من الرادار» ثمّ وجدت السـائق يأتي عنـد أماكن معينة فلا يتجاوز السرعة المقـررة ويأتي عند أماكن أخرى فيتجاوزها فسـألتُ عن سـبب ذلك، فإذا السـبب كـون الأماكن التي يبطئ عندها قد سـجل الرادار لغيره عندها مخالفات والأماكن الأخرى لم يسجل، فقلت في نفسي:

(أ) مـا راقـب السـائق الـرادار مع عـدم رؤيته لـه إلّا لعلمه بوجود عقوبـات، فكذلك البشر لا يراقبون الله مع عدم رؤيتهم له إلا بوجود نوع عقوبات يبتليهم الله بها في الدنيا بسبب معاصيهم ومخالفاتهم.

(ب) لا يصح عقلًا إنكار وجود الله لعدم رؤيته، فها هو العقل يصدق بوجود الرادار لمّا ظهر أثره مع أنّه لم يره.

كيف يستصغر المرء عبادة نفسه؟:

٤- **قال لي بعض إخواني لمّا صام يوم الاثنين**: فرحتُ بنفسي اليوم لمّا صمتُ، وبعدها بقليل قابلتُ أخًا كثير الصيام فقلتُ له: ادع الله لي أن أصوم مثل بعض صيامك، فقال لي بنبرة المتيقن لا بنبرة المتواضع، قال لي: أنا قليل الصيام، فتفكرتُ في نفسي في حالهما، فإذا بالأول قليل الصيام، فلمّا صام يومًا فرح به بينما الثاني كثير الصيام، فإذا به يلوم نفسه أن لم يصم يومًا ويومًا كحال بعض السلف، فاستصغر صيامه الكثير، فتبينت لي فائدتان:

(أ) من أكثر من العبادة أيًّا ما كانت استصغر ما يعمله ولو كان كثيرًا.

(ب) من قارن نفسه بمن هو فوقه استصغر عبادته ونجى من العُجْب.

كيف يتخلص المرء من العجب؟:

٥- صمتُ يومًا ما شديد الحر وتعبت فيه، فقالت لي نفسي: هنيئًا لك صمت في هذا اليوم وقليل من صام، وإذا بها تجول بخاطرها ماذا سيكون لها في الجنّة على هذا العمل، فقلتُ لها: يا نفسي ليس الشأن أنّك صمت لكنّ الشأن أن يقبل منك وتدخلي الجنة فما أخوفني عليك من سوء الخاتمة، فيضيع مجهودك وما عملتِ، فإذا بها تلهج بقولها: «اللهمّ آجرني من النار»، فقلتُ: هكذا والله علاج العجب، فربما شق على بعض النفوس استصغار ما عملت، فلا تنجو من العجب إلا بتذكر احتمال سوء الخاتمة، فتنكسر حدّة العجب وثورته، وما أجمل قوله ﷺ: «**لا تعجبوا بعمل عامل حتى تنظروا بِمَ يُختم له**» (السلسلة الصحيحة)، فقوله: «**لا تعجبوا**» يدل على أنّه ربما عمل المرء أعمالًا صالحةً كثيرةً حتى يتعجّب الناس من صلاحه الظاهر، وتعجبهم استقامته الظاهرة، ومع ذلك قد يُختم له بخلاف ذلك، فكيف بغيره؟!!

متى يتقدم العبد للإمامة؟:

٦- دخلتُ مرّةً للإمامة فحاولت تحسين صوتي وتجميله مباهاةً، فكان سيئًا وما تدبر أحد، ودخلتُ مرّةً أخرى وأنا كاره لا أريدها، فكان صوتي جميلًا وتدبر الناس، فقلتُ كأنّه لا يوفق للعمل إلّا من لم يطلبه، وفي الحديث: «**لا تسأل الإمارة فإنّك إن أعطيتها عن مسألةٍ وكلت إليها**» (متفق عليه)، فهكذا كل الأعمال ثمّ قلتُ: كأنّه أيضًا من أرضى الله بخشوعه وإخلاصه نال مراده، ومن راءى الناس لم ينل شيئًا.

وقد قال بعض السلف: «إذا كرهت الإمامة فتقدَّم وإن أحببتها فتأخر»، وهذا إذا وجد المرء من يحسن الصلاة غيره.

أهمية دوام تذكر العبد لسيئاته:

٧- تأملتُ حال نفسي فوجدتها أحيانًا تفرح بعملها وتحدثني بالمنازل العلى في الجنّة، وأحيانًا تستحقر نفسها وعملها حتى أنّها تمرّ بأصحاب معاصٍ ظاهرة، فلا ترى لنفسها فضلًا عليهم، فعجبتُ لهذا التفاوت البعيد، ثمّ وجدتُ قلبي يصلح مع استحقار نفسي للعمل ويفسد من استحسانها له، فبحثتُ عن سبب الخير لجلبه وعن سبب الفساد لدفعه، فوجدتُ أنّني أفرح بنفسي إذا غابت عنّي سيئاتي ولم أفعل المعاصي بينما أستحقر نفسي إذا ابتليت بالمعاصي أو استحضرت على الدوام سيئاتي، فقلتُ لنفسي: كأنّ صلاحك ألا تنسي ذنوبك، وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (الكهف: ٥٧).

٨- وقد روي عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنّه نقش خطيئته في كفِّه ليكثر من النظر إليها»، فمن أدمن ذكر سيئاته انكسرت نفسه واستقلّ عمله.

أهمية حضور دروس العلماء:

٩- أجدتُ بابًا من أبواب الفقه ففرحتْ نفسي وظنّت أنّها من العلماء في هذا الباب، فحضرتُ درسًا فيه لأحد العلماء فقال مسائل لا علم لي بها بل اكتشفت خطأ فهمي في بعض المسائل فانكسرت نفسي وتصاغرت وأدركت أنّها لا تعلم شيئًا، فقلتُ لنفسي: فكأنّ علاج العجب بالعلم هو حضور دروس المشايخ والعلماء لتعلم النفس قيمتها وحقيقتها، ثمّ حدث أن اكتشفتُ خطأً فادحًا في هذا الباب لا يكاد يخطأ فيه مبتدؤا طلب هذا العلم، فزاد استحقار نفسي لما عندها من علم حتى رأت أنّها من الجاهلين، فحينئذٍ أدركتُ رحمة الله بعبده المسلم؛ إذ يبتليه بالمعاصي والمعايبٍ لينفي عن قلبه الكبر والغرور، وقد قال بعض السلف: «رُبَّ معصية أورثت ذلًا، فكانت خيرًا لكم من طاعة أورثت كبرًا».

ابتلاء العبد لا يعني نقص منزلته عند الله:

١٠- تفكرتُ يومًا في إيلاء النّبي ﷺ من نسائه شهرًا وكيف أغضبنه وهنّ أفضل النساء بعد خديجة وفاطمة وما اختارهنّ الله لرسوله إلّا لفضلهنّ فظهرت لي فائدتان:

(أ) أنّ المرأة الصالحة قد تؤذي زوجها وتغضبه دون عمد منها بل لطبعٍ جبلت عليه أو لخطأ لا تشعر به.

(ب) أنّ الرجل الصالح قد يبتلى بامرأة تغضبه ليصبر ويحتسب، فيكون أجرًا له وتكفيرًا لسيئاته.

لا يوفّق الله إلاّ من علم فيه الخير:

١١- قرأتُ أحاديث في الفضائل كحديث: «**من قال دبر كل صلاة مكتوبة سبحان الله ثلاثًا وثلاثين والحمد لله ثلاثًا وثلاثين والله أكبر ثلاثًا وثلاثين، وقال**

تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» (رواه مسلم)، وكحديث: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة إلا أن يموت**»، وكحديث: «**من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بُني له بيت في الجنّة**»، وغيرها فتعجبت وقلتُ: هل لو فعل العبد الموبقات وعمل بهذه الفضائل يدخل الجنّة؟؟ فقلتُ: لعلّ الثواب لمن قرأها بتدبر وإخلاص ولا يأتي هذا إلّا مع ترك الكبائر ـ وهذا معنى صحيح ـ ثمّ بعد فترةٍ وجدتُ نفسي تعرف فضائل أعمال كثيرة ولا تعمل بها ربما تكاسلًا وربما نسيانًا، وكلما عزمتُ على فعلها عرض لي عارض ولم أفعل فعجبتُ لذلك كيف حيل بيني وبينها، فتذكرتُ قول الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال: ٢٤)، ثمّ زال إشكال أحاديث الفضائل، وقلتُ: لن يوفق الله للعمل بها والمداومة على ذلك إلّا من علم فيه الخير وأنّه سيغفر له ويتوب عليه.

فوائد الزواج:

١٢- قرأتُ عن بعض السلف قوله: «من تزوج لم يفلح» يقصد لم يصل إلى محبة الله، فعجبتُ من تعارض قول هذا الإمام مع قول الرسول ﷺ: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوج**»، فتفكرتُ في الأمر فوجدتُ أن الزواج مسئولية مع ما فيه من شغل القلب بحقوق الزوجة والإنفاق عليها كما أنّ دوام نيل العبد للشهوات واللذات في الزواج وغيره قد تقسي القلب، ثمّ صادف أن صليت خلف عارف نحسبه كذلك والله حسيبه، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المعارج: ٢٩، ٣٠)، فوجدته قرأ: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ بطريقة عجيبة جدًا كأنّي لم أقرأ هذه الآية من قبل، وقلتُ في نفسي: ما باله قد قرأها هكذا، فربطتُ خيوط الموضوع فتوصلتُ إلى الآتي:

(أ) زواج الرجل ونيله حظ نفسه لا يلام عليه لوم نقص فهي سُنّة الحياة، بل لو نوى الرجل بذلك إعفاف نفسه وزوجته ربما كانت له فتوحات إيمانية عظيمة، وذلك أنّ أداء حق الزوجة واجب، والقيام والصيام والتسبيح مستحب، وثواب الرب وجزاؤه على الواجب أعظم منه على المستحب.

(ب) أنّ ترك الزواج نقص فالرسول ﷺ قد أمر به وأقل أحواله أن يكون سُنّةً مؤكدة، ثمّ كمال الإيمان ليس في ترك الزواج بل في ترك الانشغال به عن الطاعة، ولذلك ذكر الرسول ﷺ من يعجب الله منهم فقال: «**ورجل عنده امرأة جميلة وفراش وثير فقام يتملقني**»، وهذه قاعدة مضطردة، فليس الزهد أن تترك أكل الطيبات بل الزهد أن تأكل من كل طيب ولا تشبع منه كحال رسولنا، فصبر العبد عن الطيب بعد علمه بطيب طعمه يدل على زهده بخلاف من لم يذقه أصلًا، فربما زهد فيه لأنّه لم يعرف طعمه، وكذلك التوكل ليس في ترك الأسباب بل في الأخذ بها مع عدم التعلق بها وعدم الاعتماد عليها فهذا هو كمال التوكل، فما أسهل ترك الأسباب وما أصعب ترك الالتفات إليها مع أخذ العبد بها.

(جـ) كمال الأنبياء وكمال رسولنا، فالواحد منا يشق عليه مع الزواج ومشاغله أن تكمل معرفته بالله إلّا من رحم الله، فكيف برسولنا وقد كان عنده تسع فأي رجلٍ كان هو وأي كمالٍ كان كماله ﷺ ؟؟

(د) في الزواج عبادات لا توجد في غيره كحسن الخلق والمعاشرة، وفي الحديث: «**خيركم خيركم لأهله**»، وكذلك في الزواج الصبر على الأذى واحتمال المكروه ومراعاة مشاعر الزوجة، ثمّ إنّ عمل النسل الصالح في ميزان حسنات الوالدين.

(هـ) في الزواج تهذيبٌ للنفس وتأديبٌ لها ـ نعم ـ أباح الله معاشرة الزوجة ولكن حرمه حال الحيض، وفي هذا تأديبٌ للنفس، فالكمال ليس في منع النفس بالكلية أو إباحة العنان لها بالكلية بل الكمال في الوسطية.

(و) ثـمّ في الـزواج متاعب يلاقيها الـزوج وأكثر منها ما تلقـاه الزوجة، ففي هذا تذكـيرٌ لهما بفضـل الأبوين كيف تعبا في تربية الأولاد، وكم من عـاقٍّ تاب وأناب بعد ما أنجب.

(ي) في الزواج كذلك ظهور لكمال الرجل في حسن قيادته للبيت وإدارته لأموره، وظهور لكمال عقله أو نقصه، وظهورٌ لصلاح نفسه أو فسادها، فكم من جاهلٍ لمّا تزوج ظهـر جهله بضربه لزوجته وإيذائه لهـا وتعاليه عليها وإذلاله لها، وكم من عاقلٍ لمّا تزوج ظهر حسن عقله من إكرامه لها.

وقد قال الحسـن البصري عن النسـاء: «ما أكرمهنّ إلا كريم وما أهانهنّ إلّا لئيم»، وفي الحديث: «**أحرّج عليكم حق الضعيفين: المرأة واليتيم**» (انظر صحيح الجامع).

(ل) هـذا بالإضافـة إلى ما في الزواج من غضٍّ للبصر وحفظٍ للفرج وتكثيرٍ لنسـل المسلمين، والله المستعان.

ما استفدته من مرضي؟:

١٣ - مرضـتُ مرّةً مرضًا أقعدني عن الجماعـة ولازمت فيه الفراش أيامًا، فحزنت نفسي لفـوات العلم والعبادة، **فقلتُ لها**: لابد للإنسـان من بلاء ومـا فاتك من عبادة إنما هي عبادات بدنية ولك أجرها بالنية بينما أنت الآن في عبادات قلبية ثوابها عظيم ولا تظهر إلّا بالاختبار، ثمّ ربـما كان مرضـك نعمةً عليكِ وعلى غيرك لو تفكرت في فوائده لِتذكُريها للمسـلمين، فتفكري

فيها كما أنّ في مرضك فرصةً لانشغالك بالذكر الكثير والفكر الطويل اللذين طالما فاتاك بسبب الانشغال بالعلم أثناء الصحة، فكان أعظم ما ظهر لي أثناء المرض أمران:

(أ) أهمية استغلال الصحة في طاعة الله، فكم أهمل المرء من طاعاتٍ في وقت الصحة وكم ترك من طاعاتٍ تكاسلًا فلمّا مرض ولم يقدر عليها ندم، فلو كان فعلها وقت الصحة لأخذ ثوابها وقت المرض، ففي الحديث: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثلُ ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»، فيا عجبًا للأصحاء كيف يتركون شكر ما يفعلون من طاعات؟ وكيف يتكاسلون عمّا يقدرون عليه من طاعات؟

(ب) أهمية أعمال القلوب، فها هي النفس مع عدم فعلها للنوافل تخشع في صلاتها لانكسار قلبها بالمرض، وفي الحديث القدسي: «**مرض عبدي فلانٌ فلم تعده، أما علمت أنّك لو عدته لوجدتني عنده**»، فمعية الله لعبده المريض خاصة بينما كانت النفس حال الصحة تفعل النوافل، ومع ذلك لم تكن تخشع كحال المرض.

تيسير الله لعباده طلب العلم:

١٤- تفكرتُ في ضعف همم الناس الآن في طلب العلم الشرعي، وكذلك في كثرة مشاغلهم والطغيان المادي الذي هو أكثر من ذي قبل، فاهتممتُ لذلك وقلتُ في نفسي: كيف يصلح حال الناس الآن مع هذه الظروف القاسية بل بعضهم يضطر للعمل ليل نهار لينفق على نفسه وولده؟ ومرت الأيام وبلغني أن امرأة فقيرة عندها أربعة من الولد ودخلها الشهري ضعيف ومع ذلك يكفيها، فقلتُ في نفسي: سبحان الله كيف أنّ غيرها عنده ما يكفيه ثمّ يطمع في الغنى والزيادة؟ ثمّ مرّت الأيام وبلغني عن بعض الملتزمين بالشرع أنه أثناء عمله يسمع القرآن سواء في أشرطة التسجيل أو الكمبيوتر، فخلصتُ من الأمر بالآتي:

(أ) أنّ كثيرًا من الناس غالوا على أنفسهم، فطلبوا الكماليات مع وجود ما يكفي حاجتهم بل والله في أمور الزواج غالوا في المهور ومتطلبات البيت من سفرة ونيش ونجف وكذا وكذا مما لا طائل تحته، ثمّ بعد ذلك يشتكون من قلة الرزق وغلاء الأسعار.

(ب) أنّ الله قد يسّر لكل زمان ما يناسب أهله ولكل قومٍ ما يعينهم على الطاعة، فقديمًا كانت الحياة بسيطة وأمّا في زماننا فقد تعقدت الأمور فيسّر الله لنا الكتب المطبوعة والـ C.D. للكمبيوتر وأشرطة التسجيل بحيث لا تبقى حجة لأحد في تقصيره في طلب العلم، فيستطيع طلبه للعلم وهو في المواصلات أو في العمل أو في البيت.

توجيه الله للعباد حتى تستقيم الحياة:

١٥- بلغني عن بعض طلبة الثانوية العامة أنه حصل على مجموع ٩٩٪ وأبى إلا دخول كلية الهندسة مع كون هذا المجموع الكبير يؤهله للطب، وبلغني عن آخر أنّه حصل على ٩٦٪ فأبى إلّا أن يدخل كليةً نظرية.

ووجدت بعض العقلاء جدًا لم تتوفر لهم الظروف للتعلّم بينما تعلم آخرون أقلّ عقلًا وذكاءً منهم بكثير، ثمّ تأملت في حال بعض من يعمل كميكانيكي أو كساح «يصلح المجاري»، وكيف يحبون عملهم، ويقبلون عليه بهمّةٍ ونشاط فقلتُ: سبحان الله كأنّ الله يوجّه العباد لتستقيم الحياة فأوجد لهذا ظروفًا لا يتمكن معها من التعلم الدراسي ليكون للمسلمين محفظًا للقرآن متفرغًا له أو كساحًا أو غيرها من الأعمال التي يحتاج الناس إليها حاجة ملحّة، ثمّ مَنْ تعلموا وجههم لتكميل مهمات ووظائف المسلمين، فحبّب إلى هذا الصيدلة ولآخر الطب ولثالث الهندسة ولرابع التربية ووجه كلًا لتستقيم الحياة.

فضل الله على عباده وهدايته لهم:

١٦- بلغني عن بعض الأفاضل كلام طيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ٢، ٣)، فأحببت نقله قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى الآيات أنّه سوّى

وكمّل كلّ مخلوق على أفضل هيئةٍ وأحسنها وقدّر للمخلوقات مهام حياتها وأعمالها، ثمّ هداها لما قدّره، وقدّر للأشياء مهامها وهدى المخلوق إلى استعمالها في مهامها، فمثلًا الملوخيا كالنعناع في الشكل الخارجي، فكيف عرف الإنسان أنّ النعناع يغلى ويشرب والملوخيا تقطع وتطبخ؟ وكيف عرف أنّ الكوسة تطبخ وتحشى بينما الخيار لا يطبخ هكذا؟ فسبحان الله كيف هدى المخلوقات إلى أمور حياتها التفصيلية، ثمّ قلتُ: فهل يتصور تركه لهداية المخلوق إلى أمور دينه التفصيلية؟

هذا لا يكون أبدًا، فالدين به قوام الحياة في الدنيا والآخرة، فياليت الناس يتفكرون في هذا ليدركوا أنّ ما شرعه الله لهم من شرائع، هو أكمل ما يكون وأهدى ما يكون تفصيلًا وإجمالًا.

حقيقة الزهد والتوكل:

١٧- تأمّلت في قول بعض الزهاد: «أشتهي أكل كذا منذ سنوات ولم أفعل» مع قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: ٨٨)، فقلتُ: لماذا أمر الله بأكل الطيب مع أنّ المداومة على ذلك قد تقسي القلب؟ فوجدتُ فوائد طيبة فأحببتُ ذكرها:

(أ) أنّ الله كريم، والكريم يفرح إذا أحضر أطايب الطعام لضيفانه فأكلوا وشكروا، فقلتُ في نفسي: مثل الزاهد الذي لا يأكل الطيبات كمثل رجل كريم صنع وليمة مِن كل أطايب الطعام ليأكل الناس ويفرحوا ويتمتعوا، فإذا ببعض الناس يقول: لا آكل هذا الطيب لأنّه طيب، فكيف تكون منزلته عند هذا الكريم؟ فكذلكم ربكم كريم، فلا ترفضوا دعوته، فما خلق لكم الطيبات إلّا لتتمتعوا بها وتشكروه عليها.

(ب) ليس من الزهد ترك أكل الطيب بالكلية إنّما الزهد في أخذ الطيب الحلال وعدم الشبع منه، ثمّ في محبة العبد له ابتلاءٌ له هل ينفق منه وهو يحبه ليكون ممن أنفق مما

يحب أم تبخل به نفسه ولا ينفق منه؟ كما أنّ المشروع هو عدم المبالغة في تناول الطيبات لئلا يقسو قلبه، وفي هذا ابتلاءٌ للعبد الذي ذاق الطيب هل يصبر على الزهد فيه أم لا؟

(جـ) في تناول العبد لهذه الطيبات تشويق له إلى الجنّة فما فيها أطيب.

فضل الله على العباد في تسخيره لهم الدواب:

١٨- بلغني عن بعض الأفاضل كلام طيب في قوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ (الزخرف: ١٣)، فأحببتُ أن أورده لحسنه، قال: لولا أنّ الله سخر لنا الحيوان للركوب لما سهل علينا ركوبه، والدليل على هذا أنّ البعوض (الناموس بلغة العوام) والبرغوث مع صغرهما يستعصيان على الإنسان ولا يكاد يمسك بهما، فكيف بالجمل والحصان والبغل مع كبر أحجامها؟ فلولا تسخيرها لنا لما سهل علينا ركوبها، فالفارق إذًا بين البرغوث والجمل أنّ الله سخر أحدهما دون الآخر، ومن حكمة الله أن سخر الكبير دون الصغير لئلا يتكبر العبد، فها هي أصغر المخلوقات تستعصي عليه، وأعظم من ذلك الفيروسات التي لا ترى بالعين المجردة وبعضها يسبب الوفاة كفيروس الإيدز، وفيروس الكبد وغيرهما، والله المستعان.

كيف يستفيد العبد من التفكر لزيادة أعمال القلوب؟:

١٩- قرأتُ للغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا طيبًا في ذلك، فأحببتُ نقله للفائدة، قال: «فإذا أراد العبد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم: فليفتش ذنوبه أولًا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه، ثمّ لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنّه متعرضٌ لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر، فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه، وفي إرساله جميل ستره عليه. وإذا أراد المحبة والشوق، فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته

وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه (يعني: التفكر في مخلوقات الله وعظيم إبداعه سبحانه في كونه).

وإذا أراد حال الخوف، فلينظر أولًا في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثمّ لينظر في الموت وسكراته، ثمّ فيما بعده من سؤال منكر ونكير، وعذاب القبر وحيّاته وعقاربه، ثمّ في هول النداء عند نفخة الصور، ثمّ في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيدٍ واحدٍ، ثمّ في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثمّ في الصراط ودقته وحدّته، ثمّ في خطر الأمر عنده وأنّه قد يُصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يُصرف إلى اليمين فينزل دار القرار، ثمّ ليحضر بعد ذلك في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقُّومها وصديدها وأنواع العذاب فيها، وأنّ أهلها كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، وأنّهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وأنّهم إذا رأوها من مكانٍ بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، وهلمّ جرا، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها. وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء، فلينظر إلى الجنّة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم» ا.هـ.

قلتُ: وكلما كان القلب أصفى كلّما انتفع بالتفكر أكثر، وإنّما صفاؤه من الزهد في فضول الشهوات المباحة إلى جانب تركه للمعاصي، ولزوم التوبة والاستغفار.

كيف يعالج المرء قسوة قلبه:

٢٠- نالت نفسي حظًا من شهوة النفس من حسن مأكل ومشرب وغيرهما، فشعرتُ بنوع قسوة وبُعْدٍ عن حالة الإيمان، فقلتُ لنفسي: ما المخرج وهذه لا ينفك عنها أحد؟ فلم يبق إلّا مداواة هذه القسوة بما يضادها، فتفكرتُ فإذا علاج هذه القسوة بالآتي:

(أ) كثرة الصيام خاصة في أيام الحر لتنكسر سَوْرة الشهوة وحدّتها.

(ب) التفكر في حال الفقراء والمحرومين خاصة بعد نيل الشهوات المباحة وأثناءها لكيلا تقسو النفس.

(جـ) ذكر الموت والتفكر فيه لِيَلين القلب خاصة بعد نيل الشهوات المباحة.

(د) عدم الإسراف والمبالغة في نيل الشهوات المباحة بل يكون التناول باعتدال.

متى يوفق العبد في الإمامة؟:

٢١- أقيمت الصلاة في مسجدٍ وأنا فيه، فدعاني أهل المسجد للإمامة، فأقدمتُ بسهولة وأحسستُ أنّي أهلٌ للإمامة فدخلتُ فتلجلجتُ وأخطأتُ حتى انكسرت نفسي وندمت وذلّت، ودخلتُ مرّةً أخرى المسجد وأنا أشعر بأنّي لا أصلح للإمامة لسوء حالي وفساد أعمالي، فلمّا دخلتُ للإمامة كنتُ حزينًا أشعر يقينًا بفساد حالي فوفِّقتُ في الإمامة والصلاة أيما توفيق فقلتُ في نفسي: كأنّ التوفيق يأتي لمن يشعر بأنّه لا يستحق شيئًا ويستحقر نفسه لله بخلاف من يرى نفسه أهلًا، ثمّ قلتُ لنفسي: حتى يدوم شعورك بالتقصير وعدم صلاحك للإمامة أو للتدريس، فلابد من دوام ذكرك للذنوب والخطايا، والله المستعان.

طريق العبد لمحاسبة نفسه ومراجعتها:

٢٢- **قال الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للعبد أن يكون له جريدة (ورقة) يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض نفسه عليها كلّ يوم، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ـ فإنّه إنْ سلم منها سلم من غيرها ـ وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدّة الغضب، وشَرَه الطعام، وشره الوقاع، وحبّ المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلُق مع الخَلْق، وحب الله تعالى، والخشوع له، فهذه عشرون خصلة؛ عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فهما كُفي من المذمومات واحدة،

فيخط عليها في جريدته، ويشكر الله على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أنّ ذلك لم يتمّ إلّا بتوفيق الله تعالى وعونه، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات؛ فإذا اتصف بواحدةٍ منها كالتوبة والندم مثلًا خط عليها واشتغل بالباقي. وينبغي أن يثبت في جريدته المعاصي الظاهرة: كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة، والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء، والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ أكثر من يُعدّ نفسه من الصالحين لا ينفك عن جملةٍ من هذه المعاصي الظاهرة، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره، وكلّ فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها لا في معاصٍ هم بمعزل عنها»ا.هـ.

فائدة تقديم الواجب على المستحب ولو أبت النفس:

٢٣- أمرني أبواي بالذهاب إلى مكانٍ ما لقضاء مصلحة، وكان الوقتُ وقتَ درس علم أحبه وأحرص عليه منذ سنين ـ ولم تكن الدروس وقتها تُسجَّل ـ، فشقّ عليّ جدًا طاعتهما ولكن قلتُ في نفسي: حضور هذا الدرس مستحب؛ إذ الواجب منه قد درستُه على يدي نفس الشيخ العام الماضي، ولكن طاعة الوالدين واجبة، فلابد من تقديم الواجب فذهبت إلى المصلحة وقلتُ في نفسي: لا يتركني الله أبدًا فإمّا أن يُلغى الدرس وإمّا أن لا يعطي الشيخ شيئًا زائدًا عمّا أعطاه العام الماضي وإمّا أن تُقضى المصلحة في وقتٍ أدرك فيه، وتوكلتُ على الله ووثقتُ فيه فذهبت إلى المصلحة فقضيت سريعًا بحمد الله، ثمّ ركبت المواصلات لأذهب إلى الدرس فتعطلت المواصلات فقلقت واضطربت نفسي فقلت لها: من كان عند ظنك الحسن في الأولى سيكون عند حسن ظنك أيضًا في الثانية، فتوكلي عليه فاطمأنت نفسي فصلحت المواصلات

وذهبت إلى الدرس وما فاتتني حتى مقدمة الدرس، فأدركتُ أنّه من فعل الواجب من طاعة الوالدين نال الواجب والمستحب، ومن ترك الواجب لم ينل لا الواجب ولا المستحب، وأدركتُ كذلك فضل الله ورحمته وعظيم فضله على عباده.

ما يعين العباد على صيام الأيام شديدة الحر:

٢٤- كنتُ يومًا صائمًا في الصيف في يوم طويل حار فأتى عليّ المغرب، **فقلتُ**: لو تأخر المغرب حتى أنتهي من مشاغلي وقراءتي، فعجبتُ كيف لم تشتق نفسي إلى الفطر وتمنت أن لو تأخر المغرب، ثمّ تذكرت أنّي صمتُ يومًا مشابهًا من أعوام ماضية قبل اهتمامي بقراءة العلم، فأتى علي العصر، فكادت نفسي أن تتقطع من ألم الجوع والعطش، فعجبتُ لاختلاف الموقفين فخلصتُ بأنّ الانشغال بالعلم والقراءة والكتابة يشغل النفس عن شهواتها، ولذلك كثر زهد العلماء وطلاب العلم وقلّ زهد العوام، ثمّ عرفت كذلك أنّ الصيام يشق علينا لانشغالنا بالدنيا وتضييعنا للأوقات بخلاف ما لو شغلنا الوقت بالعلم لمرّ الوقت سريعًا حتى يأتي المغرب فنحزن لفوات قراءة العلم!!

كيف يستفيد طالب العلم من المشاغل:

٢٥- شكى إليّ بعض إخواني كثرة انشغاله بقضاء مصالح أسرته ودراسته وعدم تفرغه التام لطلب العلم، وكثرت الشكوى من هذا الأمر حتى اشتكت نفسي منه، فقلتُ في نفسي: هذه مشاغل لابد منها وطالب العلم معانٌ من الله فتفكري عسى أن تجدي لهذه المشاكل فوائد؟ فرأيت أنّ هذه المشاغل لو خُلِّي منها العبد لربما جاءه الفتور والكسل لشعوره بسعة الوقت عنده فيضيعه بخلاف من شغل بهذه المشاغل، فإنّه سيعرف قيمة ما تبقى له من وقت فلا يضيعه.

❁ ثمّ هذه المشاغل مع عشق المرء للعلم تجعله يأخذ من نومه وراحته للعلم ليعوض ما يضيع في المشاغل، فتتعود نفسه على علو الهمة وقلّة النوم حتى إذا تفرغ من المشاغل كان جسده قد تعوّد على قلة الراحة، فيتفرغ أكثر وأكثر.

۞ ثمّ طالب العلم الذي يعشقه قد تفوته بعض الأوراد والأذكار وبعض التفكر، فله في مشاغله أن يشغل الوقت أثناء التنقل والعمل في الذكر والفكر، فلربما لو تفرغ للعلم لما أقدم عليهما.

۞ ثمّ في المشاكل والمشاغل اصطدام بالحياة ومتاعبها ممّا يصقل عقل المرء، والعلم يحتاج إلى ذكاء وخبرة وصقل معرفة، فسبحان الله الحكيم الخبير.

۞ وربما نجح طالب العلم في طلبه على أكمل وجه مع هذه المشاغل، فيكون حجة على مَنْ لم يُشغَل ومع ذلك لم يطلب العلم.

ما يُهوِّن مشاكل الحياة على المؤمن:

٢٦- مررتُ بمشاكل دنيوية كثيرة، فضاقت نفسي بها ذرعًا، وضاع وقت العلم حتى لم أدر ماذا أفعل، فكانت كلما أتت مشكلة تفرغت نفسي بهمّتها من أجل حلها في أسرع وقت وإن لم تفعل مع هذا سوى الفرائض ظنًا منها أنّ المشاكل ستنتهي بحل هذه المشكلة، فكانت كلما انتهت واحدة نشأت أخرى كأنها سلسلة متصلة لا تنقطع، فقلتُ لها: وكأنّك ستظلين على هذا الحال وتتركين ما يجب أن تُشغلي به؟ ثمّ حملك للهموم تسبب في سوء أخلاقك من سرعة الغضب والانفعال وربما أخطأت في الآخرين، أفتظنين أنّ كل من يصطدم بمشاكل الحياة تسوء أخلاقه مثلك هكذا؟ أم تريدين حياة من غير مشاكل؟ فإذا عرفتِ ذلك فلابد من وجود حلٍّ لما أنتِ فيه من سوء حال، فتفكرتُ فخلصتُ بالآتي:

(أ) أنّ المشاكل نعمة في الحقيقة للعبد المؤمن؛ إذ بها يكتشف أخلاقه وطباعه الحسنة والسيئة، فهل هو ذو طيش وعجلة وسرعة انفعال وقلة توكل أم هو بضد ذلك، وما كانت هذه الأخلاق والأعمال القلبية لتظهر إلّا بالاختبار.

(ب) ثـمّ مـع كثرة المشـاكل فرصة للنجـاح في اختبار الأخلاق والأعـمال القلبية، فربما فشل العبد في المشكلة الأولى، فعنده مستعتب في المشكلة الثانية فلِمَ الحزن من كثرة المشاكل؟

(جـ) **ثـمّ قلـتُ لنفسي**: مشـاكل الدنيـا وإن كبرت هينة سـهلة، وما أجمـل اللفظ النبوي؛ إذ يعبر عن هذه الحقيقة بقوله: «**مَنْ فرّج عن أخيه كربةً من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة**»، ولم يقل: «من كُرَب الدنيا والآخرة» كما قال: «**ستره في الدنيا والآخرة**».

قـال العلماء: لأنّ كُـرب الدنيا هينة بالنسـبة للآخرة فهي كلا كُـرَب أصلًا، فقلتُ لنفسي: وإنما يصعبها عليك أنّك تظنّين عند مجيء المشـاكل السـهلة أنّك قادرةٌ على حلها فـإذا جاءت الصعبة يأسـتِ من حلها، فأخطـأت في الأولى والثانية، أمّـا الأولى فقد كان الواجب عليك التوكل على الله؛ فمهما ملك العبد من أسباب القوة، فلابد من إعانة الله له وإلا كان الخـذلان، وأمّا الثانية فلعدم توكلك على الله في إزالة الهموم، فلا يأس من رحمة الله، فكأنّ المشاكل اختبار عملي للتوكل على الله والاعتماد عليه وحده!!

(د) فعنـد ذلـك قالـت لي نفسي: إذًا أدعو الله بالمشـاكل وأتمناها! فقلـتُ لها: نُهينا عـن تمني البلاء، وربـما ظننتِ أنّك قادرةٌ عـلى التوكل فلا تسـتطيعين، ففوضي الأمر إلى الله واطلبي منه الخير لك، فلو كان الخير وزيادة الإيمان في وجود المشـاكل فهو المطلوب، وإن كان الخـير وزيـادة الإيمان في زوال المشـاكل فهو المطلوب، وما أجمل ما قاله الحسـن بـن عـلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا أفضل الفقر على الغنى، ولا المرض عـلى الصحة، ولا الموت على الحيـاة ولكن أقـول: أحَبُّها إليّ أحبها إلى ربي»، فليكن لسـان حالك: «وأفوِّض أمري إلى الله»، فلـو تدبرت هـذا والله وعملتِ به ما كان هناك ضيق ولا غيره، فالرضا والتفويض

هما أساس صلاح القلب والنفوس، فإن أردتِ الكمال ففوضي أمرك إلى الله قبل وقوع القضاء، وارضي بما اختاره الله لك بعد وقوع القضاء.

(هـ) ثمّ حمدت الله أن أفهمني هذا وحمدته كذلك على المشاكل فما كانت هذه الحقائق لأعرفها لولا تقدير الله للمشاكل.

فوائد ابتلاء العبد بالعيوب:

٢٧- تأملتُ في عيوبي فوجدتُ عيوبًا تزول سريعًا بالأخذ بأسباب زوالها وعيوبًا أخرى منذ سنين لا تزول، فساءني ذلك جدًا لكثرة محاولتي لزوال العيب مع عدم زواله بل بعضها أريد الأخذ بأسباب زواله فلا أستطيع، ثمّ لفت نظري وجود هذا الأمر عند كثير من الملتزمين بالشرع فتفكرت في الأمر ففهمتُ الآتي:

(أ) وجود هذه العيوب التي لا تزول، والتي قد لا يجد العبد أحيانًا الاستطاعة لممارسة أسباب زوالها يفسره قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال: ٢٤)، وفي هذا تخويفٌ للنفس، فالذي منعها من محاولة إزالة العيب ربما منعها من الإيمان بعدُ، فالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلّا الله.

(ب) ثمّ في عدم زوال العيب مدعاة للتوكل على الله بعد اليأس من النفس، فكمال التوكل في الحقيقة لا يأتي إلا بعد اليأس من النفس، وكم كانت النفس تظنّ أنّها قد قدرت على إزالة العيب، فتبتلى به ثانيةً، ففي هذا مدعاةٌ ليأس العبد من نفسه وتوكله على الله.

(جـ) ثمّ في هذا العيب كسر لعجب النفس وصولتها ومنّها بالطاعة، فها هو عيبها الملازم لها لا تستطيع تركه.

(د) ثمّ في هذا العيب فوائد، فمع دوام وجوده ستعلم النفس ما هي أسبابه التي تدعو إلى وجوده، وما هي كيفية التخلص منه، وربما كان صاحب العيب عاقلًا فطنًا فيعرف ذلك ويعلمه للناس، فربما لو ابتلي غيره ممن ليس في عقله لما استفاد الناس.

فوائد مداومة العبد على العمل الصالح وإن قلّ:

٢٨- تأمّلتُ حال نفسي فوجدتُها قد سهل عليها القيام بطاعات مستحبة معينةٍ بينما طاعات أخرى أكثر فضلًا منها لا تفعلها إلّا قليلًا، ثمّ تأملتُ قلبي عند ترك المداوم عليها فوجدتُه يحزن جدًا ويشعر وكأنّه قد عصى الله بينما لو داوم على ترك التي لا يفعلها إلّا قليلًا لما شعر بشيء مع أنّها أكثر فضلًا وأهميةً من التي داومتُ عليها، فانقدح في نفسي معنىً جديد لحديث: «**اكلفوا من العمل ما تطيقون**»، وحديث: «**أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه**»، وهو أنّ العبد مأمور بالمداومة على العمل المستحب حتى إذا فقده شعر بالحزن لفقده، فاستغفر من ترك هذا العمل تعويضًا لما فاته فيكون دائم الشعور بالتقصير؛ إذ ما من سُنّةٍ إلا وتفوت فاعلها أحيانًا، فإذا صار هذا هو حال العبد كان من المحسنين الذين يستغفرون لترك المستحبات بخلاف ما لو لم يداوم على المستحبات، فإنّه لا يكاد يشعر بالحزن لفواتها، فربما سهل عليه بعدُ تركها بالكلية، وربما أدى به الأمر إلى ترك الفرائض؛ فإنّ سلسلة التهاون لا تنتهي، وكم من عبدٍ تكاسل عن سُنّةٍ واستهان بتركها فآل به الأمر إلى ترك الواجب، فسبحان المشرع الحكيم.

أهمية تقديم مراد الرب على مراد النفس:

٢٩- سألني أخٌ عمّا إذا أمره أبواه بالعمل ساعاتٍ ما أكثر من ساعات عمله، وهو لا يريد ذلك بحجة التفرغ للعلم والدعوة، فذكّرني ذلك بأسئلة آخرين عمّا لو طالبهم الآباء بترك الصيام في أيام التطوع، فقلتُ في نفسي: جواب النفس صُمْ وتفرغْ للعلم والدعوة، وجوابُ الشرع: أطعْ أباك في ترك المستحب إن كان لهما غرضٌ صحيحٌ في ذلك، فقالت لي نفسي: فكيف

بحزن القلب لفوات الطاعة، وأين ما فات من ثمرة الطاعة؟ فأعادت نفسي النظر فاستفادت ما يلي:

(أ) أنّ الصيام أو القيام حظ النفس ومرادها، وطاعة الوالدين مراد الرب، فمن أطاع مراد الرب، فهو العابد حقًا، ومن أطاع مراد النفس فقد أطاع هواه.

(ب) ثمّ المتحجج بترك العمل من أجل الدعوة والعلم لا يخلو من حالين: إمّا أن يكون لا وقت لديه للتعلم الواجب والدعوة الواجبة سوى هذه الساعات الزائدة عن عمله، فهذا لا يترك الدعوة والعلم، وإمّا أن يكون لديه وقت آخر ولكنه يتكاسل فيه، وهذا هو الغالب، فنقول له: أطعْ أباك وليس الكسل عذرًا في ترك طاعة الوالد، ولو كانت لديك همّةٌ ومحبةٌ للعلم لاستغللت كل ما لديك من وقت فراغ فيه، ولربما أخذت من نومك، بل شعورك بالتقصير في طلب العلم بسبب ما قضيت من عمل سيزيد من همّتك ويباعد عنك الكسل والفتور ولربما لو عصيت أباك لما وفقك الله للعلم، فليس العلم عن كثرة القراءة والتعلم للمسائل، وإنما هو بإفهام الله لعبده وتوفيقه، فكم من أناسٍ تركوا واجبات بحجة طلب العلم، فأضاعوا الواجب وما انتفعوا بالعلم بل انقطعوا عن طلبه.

(جـ) كما أنّ تقوى المسلم في عمله دعوةٌ أيما دعوة، فهو في عمله يستطيع دعوة من معه بسهولة بخلاف ما لو بَعُد عنهم، فالمهندس التقي في عمله يمنع الرشوة والسحت ويمنع الغش في البناء وهذه دعوة، وكذلك الصيدلي لا يبيع المحرم وينصح المتبرجات والمدخنين ويرفق بالفقراء فلا يأخذ منهم الثمن كاملًا، فلو ترك هؤلاء العمل، فمن سيقوم بهذه المهام الدعوية؟

(د) ثمّ في هذا تعليم للنفس أن تعمل ما يريده الرب وإن لم تجد فيه سعادةً؛ لتتعود على طلب رضا الله بالطاعة لا طلب سعادة النفس، وقس على هذا، فلو أقيمت الصلاة والمرء خارج المسجد، فالنفس تحب الإسراع جدًا حتى تدرك التكبيرة والرب يريد الطمأنينة ولو

فاتت التكبيرة ـ نعم ـ ما أصعب هذا على النفوس التي تعودت على إدراك تكبيرة الإحرام، ولكن هذا هو الاختبار الحقيقي لحقيقة الإيمان والاستسلام في قلب العبد لله رب العالمين.

ضرورة الاستقامة وخطورة التهاون:

٣٠- نصحت طالبًا في الثانوية العامة بالمحافظة على صلاة الفجر، فقال: أنا الآن مشغول ولما أنتهي من الثانوية أتفرغ أكثر وأحافظ على الصلاة، فلمّا دخل الكلية التي أراد ما حافظ على الصلاة، وتأمّلتُ في حال طالب آخر كان محافظًا على الصلوات والأوراد في الإعدادية، فلمّا دخل الثانوية ما قصر فيها حتى أيام الامتحانات، فلمّا دخل الكلية كان على نفس هذه الحال الطيبة، فقلتُ: هي والله المبادئ التي مَنْ استقام عليها استقام ولو عرض له من الظروف والمصاعب ما عرض، ومَنْ لم يحافظ عليها ضيّعها ولو كان في رخاء من الحال، وتأمّل قول عليّ بن أبي طالب لأصحابه عن ذكر النوم: «يسبح ثلاثًا وثلاثين ويحمد ثلاثًا وثلاثين ويكبر أربعًا وثلاثين قال: ما تركتُها قط، فقالوا له: ولا ليلة صفين؟ قال: لا ولا في ليلة صفين»، فانظروا إليه ما تركها أبدًا، وهكذا تكون المبادئ لا تترك.

ولذلك أنصح كل من يريد طاعة الله وكل مربٍّ للأشبال والصغار، أنصحه أن يقيم فيهم المبادئ ويعلمهم أنّ صاحب المبدأ لا يتعب ولا يشقى بل يكيّف ظروفه لتوافق مبدئه بخلاف المتساهل؛ فإنّه يتلون كل يوم على مبدأ وفكرة، وأنصحهم كذلك ألّا يتركوا مبدأهم لأيّ سبب، فإنّ الصعاب لا تزول ولا تنتهي في الحياة فمَنْ أوهم نفسه أنه سيترك مبدأه في هذه المشكلة وبعدها سيستقيم، فهو جاهل لا يعرف حقيقة الأمر، والله المستعان.

نعمة الطاعة:

٣١- صلّيتُ مرّةً صلاة الصبح في الجماعة، فلمّا انتهيتُ من الصلاة أحسستُ بحلاوة الصلاة وجال بخاطري نعمة التوفيق لهذه الصلاة الجليلة، فكم من عبدٍ حُرم منها، وقلتُ

لنفسي: كيف يكون حزنكِ وغمّكِ لو أنّكِ فاتتكِ صلاة الصبح في الجماعة؟ فإذا بها تحمد ربها وتشكره من أعماقها، فقلتُ لها: قدْ مَنّ اللهُ عليكِ بنعمةٍ أخرى في هذه الصلاة، وهي أنّكِ صليتِ ركعتي الفجر اللذين هما ـ كما في الحديث ـ «خيرٌ من الدنيا وما فيها»، فإذا بها تحمد ربها وتشكره من أعماقها ثانيةً، فقلتُ لها: ونعمةٌ ثالثة أنّكِ خشعتِ في الصلاة وأحسستِ بحلاوة الصلاة، فإذا بها تحمد ربها وتشكره من أعماقها ثالثةً، فقلتُ لها: ونعمةٌ رابعة أنّكِ أدركتِ تكبيرة الإحرام، فإذا بها تحمد ربها وتشكره من أعماقها رابعةً، وإذا بأنوار الحمد والإيمان تغمر قلبي، وإذا بنوازع محبة الله تسيطر عليّ، فندمتُ على ما فاتني من عبادة الشكر على الطاعة، نعم ـ لا تتحقق هذه المعاني الإيمانية في القلب على الكمال إلّا مع إتقان أداء العبادة والإحسان فيها إلى جانب صفاء القلب عن كدر المعاصي، وكلاهما يصعب ـ على أمثالي ـ تحقيقه على الدوام، ولكن حسبنا أن نجتهد في دوام تذكير النفس بالنعم المتعددة في العبادة الواحدة إلى جانب الاجتهاد في إحسان العبادة مع دوام التوبة والاستغفار، ومع دوام الاجتهاد يصل العبدُ بإذن الله، والله المستعان.

أهمية العمل بالعلم:

٣٢- تأمّلتُ حال كثيرين من طلبة العلم ممن قرأوا ودرسوا كثيرًا ولكن لم يظهر لهم صيت بين الناس ولم يُنتَفَع بعلمهم بينما آخرون ليسوا كذلك ولكنّهم وصلوا في العلم إلى منزلةٍ عالية وفهمٍ ثاقبٍ وبارك الله لهم، فانتفع النّاس بهم فقلتُ في نفسي: ما السبب؟ فوجدتُ أنّ الأولين لم يعملوا بعلمهم فكان أحدهم يراه الناس يلتفت في صلاته كالطفل الصغير لا يكاد يخشع في صلاته، ولا يكاد يقول الأذكار الموظفة، فما انتفع بعلمه ولا انتفع النّاس به، بينما الآخرون عملوا بعلمهم واستفاضت عبادتهم، فأفهمهم الله المسائل وتحقق فيهم قول الله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ (الأنبياء:٧٩)، ويشهد الله كم من مسائل تكلم فيها العلماء بعشرات الصفحات فجاء مِنْ بعدهم علماء فلخَّصوها في ورقات فكان

كلامهم أنفع، وكم من شيخ داعية قلّ نصيبه من القراءة وكثر فهمه واستنباطه، والله هو العليم يعلّم من يشاء ويسهل على من يشاء ويغلق المسائل على من يشاء.

نصائح لطلبة العلم:

٣٣- تأمّلتُ حال طالب علم فأعجبني ما هو فيه من علمٍ مع أنه لم يكن كثير القراءة، وكان يقول: قلما أحفظ المسائل، فعجبنا من حاله فبحثتُ عن طلبه للعلم، فإذا به تميز بأشياء فأحببت ذكرها لأنتفع بها أنا وإخواني، وهي ما يلي:

(أ) كثرة حضوره لدروس المشايخ المنهجية، فربما حضر درس الشيخ حتى يكمل الكتاب، ثمّ يحضره ثانيةً وثالثةً، وقد جربتُ بنفسي هذه الطريقة فاستفدتُ جدًا من المرة الثانية والثالثة أكثر من الأولى، كما أنّي تعلمت التواضع والشعور الدائم بالحاجة إلى علم المشايخ حفظهم الله وبارك للأمّة فيهم.

(ب) المداومة على الدروس ولو كانت قليلة، وعدم الانقطاع أو اليأس.

(جـ) شرح هذه الدروس للنّاس، فقد كان على ما رأيناه ربما أعطى في اليوم الواحد ثلاثة دروس، وكان يقول: ما حفظت المسائل إلّا من كثرة شرحها، فربما ما سّمعها لنفسه قط وكان يحفظها والله أكثر ممّن يسمِّعها، وقد قيل: «العلم يزكو بالإنفاق»، وربما قال: «ما تعلمت نصف المسائل إلّا بعد شرحها للنّاس»، وقد جربتُ ذلك بنفسي، فكثيرٌ من المسائل ما فهمتُها حتى شرحتُها للناس وناقشتُها معهم.

(د) العمل بالعلم وعدم الإخلال بالأوراد والأذكار.

(هـ) أنّه كان لا يقرأ إلّا بعد استشارة المشايخ؛ ينصحونه بالذي يقدِّم قراءته، فليست العبرة بالقراءة، ولكنّ العبرة بالذي تقرأه، فالعمر قليل والكتب كثيرة والعلم بحر واسع، فلابد من ترتيب الأولويات.

obeikandl.com

كيف تثمر العمرة الإيمان في قلوبنا؟:

٣٤- تأمّلتُ حال السلف عند الاعتمار، فكان أحدهم ربما يسافر في شهور ويعود في شهور ويقضي هناك يومين أو ثلاثًا وربما ساعات ثمّ يعود بينما نحن نسافر في يومين وربما في ساعات وكذلك في العودة، ونمكث هناك أيامًا وأسابيع وربما شهورًا، ولكنّ صلاح قلوبهم بالعمرة كان أعظم منّا بكثير، فعجبتُ لذلك وقلتُ: ما السبب؟ فأرجعتُ السبب إلى عدة أمور:

(أ) أنّ السلف كانوا يشعرون بمشقة الرحلة وبقصر وقت الإقامة، فكانوا يستغلون كلّ دقيقة وكلّ ثانية في طاعة الله بينما نحن نجد الوقت أمامنا واسعًا، فنتكاسل عن استغلاله.

(ب) أنّ العبرة في الأعمال البدنية بما يقوم في قلوب العباد من إيمانيات وتأمّلات لا بمجرد الصورة الظاهرة، والفارق بيننا وبين السلف في هذه المعاني أكبر مما بين السماء والأرض.

(جـ) أنّ اهتمام الناس في زماننا في أنواع المآكل والمشارب والملابس أبعدهم عن مقصود العمرة بينما زهد السلف وقلة ذات اليد عندهم وبساطة أمورهم جعل للعمرة طعمًا آخر في قلوبهم.

(د) أنّ السلف كانوا على الاستقامة قبل العمرة، ممّا كان له أعظم الأثر في انتفاع قلوبهم بالعمرة، بينما أكثر الناس اليوم على خلاف ذلك، فكانت العمرة بالنسبة للسلف مغنمًا لمعاني إيمانية جديدة بينما هي بالنسبة لنا بمثابة فرصة لمجاهدة النفس للاستقامة على طاعات ظلّت طوال العام لا تكاد تستقيم عليها.

تنبيه: من أعظم ما يزيد استفادة المرء من العمرة، استعداده لها قبلها، وذلك بمحاسبته لنفسه لمعرفة عيوبها وآفاتها التي طالما حاول التخلص منها، فلم يفلح، فإذا به يشتاق إلى العمرة ليدعو ربه بتخليصه من تلك الآفات، وكذا يتبين له بمحاسبته لنفسه

منـازل الإيمان والإحسـان، فيدعو ربـه في عمرته بأن يرزقه إياها، فلا حـول ولا قوة إلّا بالله.

كيف يثمر الاعتكاف الإيمان في قلوبنا؟:

٣٥- تأمّلتُ أمر اعتكافنا واعتكاف السـلف فوجدتُهم بعد الاعتكاف يقومون الليل في شوال وما بعده بينما نحن في الغالب لسنا كذلك، فعجبتُ في نفسي لماذا أثّر فيهم الاعتكاف ولم يؤثِّر فينا، فأرجعتُ هذا إلى أسباب:

(أ) أنّهم كانوا يقومون الليل قبل رمضان، فاسـتمروا بعد رمضان بينما نحن لا نقوم إلا في رمضان فما استقام لنا قيامٌ بعد رمضان.

(ب) أنّهم كانوا في اعتكافهم يهتمون بكثرة القراءة والتعود على التدبر سواءٌ مع القارئ أو عند قراءتهم هم مع أنفسهم، بينما نكتفي نحن في اعتكافنا بقراءة القارئ ونقضي النهار في النّوم ثـمّ لا نتدبر مع قراءة القارئ، وهذا هو أكبر سـببٍ لضياع كثير مـن فوائد الاعتكاف، ولذلك نقول للمعتكف: لابد أن تجعل لنفسـك وردًا يوميًا تقرأ فيه بتدبر، ولو قلّ مقدار قراءتك، ويا حبذا لو كان بالليل، فإنّ القلب يكون في الليل أشـد حضورًا كما أنّ تدبر وتفهم القرءان ميسرٌ في رمضان أكثر من غيره، وأثره في القلب في رمضان أكثر من غيره.

خطأ من يهتم بصلاح الناس على حساب صلاح نفسه:

٣٦- تأمّلـتُ حال مشـايخ للدعـوة فوجدتُ بعضهم تفرغ لتعليـم الناس والبذل لهـم ففتح الله عليه بالفهوم والعلوم وبعضهم تفرغ لنفسـه وما بقـي عنها أعطاه للناس، فقلتُ لنفسي: أيّ الطريقتين أفضل؟ فقالت لي: خيرهما عند الله فقلتُ: خيرهما ما يكون صلاحـي وإيـماني فيه أكثر، فها هو أويس القرني لم ينفـع الأمّة بكثير علم وهو أفضل من سـعيد ابن المسـيب بنصّ النبي ﷺ مع كون سعيد بن المسـيب نقل للأمّة مئات السنن والأحاديث!! فلابد من اهتمام المرء بصلاح نفسه أكثر من اهتمامه بصلاح الناس،

فـأولى النفـوس بخيرك نفسـك خاصة لو كان في أمر الدين، فليس مـن الإيثار أن تفضل التزام الناس على التزامك، ولكن مَنْ وجد قلبه يصلح أكثر مع مخالطة الناس لتعليمهم، أو وجد أنه لو تفرغ لنفسـه لكسـل ولم يصنع شـيئًا فخلطته بالناس أولى بلا شك، ولعل هذا هو فصل الخطاب في هذه المسألة، والله المستعان.

وليـس معنـى هـذا ترك تعليـم النـاس وتحفيظهم القـرآن ودعوتهـم إلى الله، فهذه واجبـات لا تصلح النفس بدونها، ولكن المقصود عدم المبالغة، وعدم الإكثار من خلطة الناس بحيث ينسى الإنسان نفسه أو يهمل في حق تعبدها لله وتعلّمها للدين.

حكمة الله في توجيه طلاب العلم إلى العلوم المختلفة:

٣٧- تأمّلتُ حال طلبة العلم فإذا بأحدهم يسعى في علوم القرآن ويجتهد فيها، وبعضهم يسعى في علم المصطلح ويسعى فيه، وبعضهم في علم الفقه، وبعضهم في السيرة لا يردهم عن حبهـم لهذا الباب رادّ، فقلتُ: سـبحان الله! وجّه عباده إلى العلـوم المختلفة ليكمل حال الأمة، فإنّـه يصعـب جدًا عـلى الواحد أن يبلغ الكـمال المتاح في كل باب من أبـواب العلم خاصة وأنّ العلوم كلّها محتاجٌ إليها، وبالأخص فروض الكفايات.

وكـمال العلـم في الباب ينـال بكمال التفرغ، وهذا أمر مشـاهد، فوجّـه الله كلَّ عبدٍ لمحبة بابٍ من العلم ليتفرغ له.

تنبيهان:

١- من الخطأ أن يتفرغ المرء للعلم المستحب أو لفروض الكفايات قبل تحصيله لفروض العين من فقه التوحيد وفقه العبادات والمعاملات التي يحتاجها.

٢- مـن الخطـأ كذلك أن يجد العبد في نفسـه حبًا لعلمٍ ما، ويرى أنّـه لو تفرغ له لأفلح، ثمّ إذا به لا يخلص له ولا يتفرغ له بل يشتت نفسه فيما لا يتعلق بهذا العلم، فيضيع مجهودًا كان بذله للعلم الذي يحبه أولى.

obeikandi.com

كيف يعالج المؤمن كسله عن الطاعات؟

٣٨- ذهبتُ مرّةً إلى المسجد وقبل أن أخرج من بيتي كسلت نفسي عن الذهاب إلى المسجد وهي على وضوء، ثمّ قالت لي: المسجد بعيد والخطوات كثيرة وذنوبي كثيرة فأحتاج إلى مثل هذا، فعجبتُ لها كيف بادرت برضًا تامّ إلى الوضوء بينما كنتُ أجدها في مراتٍ أخر سابقة لا تكاد تتوضأ إلّا وهي راغمة، فبحثتُ عن السبب، فوجدتُ نفسي في هذه المرة التي بادرت فيها بالوضوء كانت مستحضرة لذنوبها متفكرة فيها بينما المرة الأولى كانت ناسية لها غافلة عنها، فقلتُ لنفسي: كأنّ استذكار الذنوب واستحضارها هو سبب كل خير وطاعة، وعلى العكس من ذلك لو نسي العبد ذنوبه.

الاتعاظ بحال أهل القبور:

٣٩- زرتُ مرّةً المقابر فتذكرتُ قول بعض السلف: «أصبحتم في أمنية كثير من الناس» يقصد أنّ الموتى يتمنون حياة يوم أو ساعة ليعوضوا ما فاتهم من طاعة الله، فنظرتُ في حال الناس، فإذا كثيرٌ منهم في غفلة يمضي قدمًا في فعل المعاصي والمباحات ولا يدري لعلّ اليوم أو غدًا هو يوم وفاته، ولكن صدق قول الله فيهم: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩)، ثمّ تذكرتُ كيف أنّ العبد يستطيع اليوم أن يتوب ويستغفر وينيب، ولكن أهل القبور انقطعت أعمالهم، فنحن في دار عمل بلا حساب وهم في دار حساب بلا عمل، وفي الحديث: «**ركعتان مقتصدتان ممّا تنفلون وتحقرون أحبّ إلى هذا** ـ أي: الميت ـ **من بقية دنياكم**».

فوائد قصر الأمل:

٤٠- حدَّثتُ نفسي وقلتُ لها: هبي أنّك تموتين الليلة فماذا ستفعلين؟ فوجدتُها تستغفر وتراجع سيئاتها وتندم عليها وتدعو لمن أخطأت في حقه من البشر وتقرأ القرآن وتصلي، وإذا بها زاهدة في شهوات الدنيا حتى في المباح منها، فعجبتُ لعملها وقلتُ: لو

أنـك كل ليلة تستحضرين هذا الأمر لكان عملك على غير ما أنـت عليه الآن! وقد قال النبـي ﷺ: «**أكثـروا من ذكـر هادم اللذات**»، وقد قال ابـن عمر لمجاهد: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»، ولنعم النصيحة والله هي لو داوم العبـاد عليهـا، وقد كانت إحدى العابدات إذا أصبحت قالـت: «هذا آخر أيامي»، وإذا أمست قالت: «هذه آخر ليلةٍ أحياها، فظلّت هكذا حتى ماتت».

فقه السلف في إصلاح النفس:

٤١ - أعجبنـي جـدًا فقهُ السـلف ـ رحمهم الله ـ في طباع النفـس، فأحببتُ أن أذكر قصةً من قصصهم لعلاج مشـكلة كبرى، وهي مشـكلة الشـوق والتطلع إلى الشهوات، فعن بعض السـلف أنّه خرج بتلاميذه إلى صحراء، فعطشـوا فلمّا وصلوا إلى بئر قال: لو صبرتـم حتى البئر الثاني، فسـاروا حتـى إذا وصلوا إليه قال: لو صبرتـم إلى البئر الثالث حتـى إذا وصلـوا إليه قال: لـو صبرتم إلى الرابع حتـى إذا أتوه شربوا، فقـال لهم: هكذا نقطع الدنيا، يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرين:

(أ) أنّ العبد إذا وجد نفسـه تتطلع إلى شيء من الدنيا صبّرها بأنها سـتجده وتتنعم به في الآخرة، فإذا بالنفس تصبر بخلاف ما لو شعرت بالحرمان لربما تطلعت إليه.

(ب) كذلـك يقصـد أنّ العبـد إذا قطع تعلق نفسـه بالشـهوات المكروهـة والمحرمة فلا يشـعرها بالحرمان منه فالممنوع مرغوب، ولكن يشـعرها بالتعالي عليها وأنها دناءة يتعالى عنها أهـل الكـمال، فـإذا بها تتركها بـلا كلفة ولا ترجـع إليها بخلاف مـا لو شـعرت بالحرمان منها لنازعت إليها منازعة شديدة ولا يكاد يستقيم لها حال.

أهمية مصاحبة ورؤية العارفين:

٤٢ - حضرتُ مرّةً خطبةً لبعض العارفين، فبكى في الخطبة والصلاة، فحزنتُ على نفسي كيف لم تصل بعدُ إلى حاله، ثمّ في نفس المسجد قابلتُ عارفًا آخر على وجهه حلاوة الإيمان، فطار

قلبي شـوقًا إلى طريقهم ومثل حالهم، فعرفتُ فائدة مجالسـة الصالحين ومخالطتهم وصحبتهم، فهـي لا تدعـو إلّا إلى الخير بخلاف صحبة العبد لأهل الغفلة وبُعْدِه عن أهل الصلاح، فهي لا تـأتي إلّا بالغفلـة، فعـلى مَنْ يريد صلاح نفسـه أن يصحب مَنْ هو أفضل منه ليـزداد إيمانه، ولا يصحب مَنْ هو أقل منه لئلا يقلّ إيمانه.

الاهتمام بامتحان الآخرة:

٤٣- تأمّلـتُ حـال نفسي أيام امتحانات الكلية، فإذا بها تسـهر حتى الفجر تذاكر، وربما ذهبت إلى الامتحان وقت الظهر وهي لم تنم إلّا ساعة أو بعض ساعة بل لو نامت بالليل لقلقت بعـد قليـل، وربما رأت في المنام الامتحان وأنّها لم تحـضره، فقلتُ لنفسي: هكذا كان حال طالبي النجاح في امتحان الآخرة، فقد كان السلف لا ينامون إلا قليلًا، وكان أحدهم إذا نام رأى النار أو الجنّـة في منامـه، وكان أحدهم لا يكاد يفتر عن العبادة، فهم مع اجتهادهم في العبادة يخافون ويقلقـون لشـعورهم بالتقصـير كما يفعل طالب الكليـة، فقلتُ لنفسي: لو أنّـك تفعلين هذا في امتحـان الآخـرة.. ولكن وصول العبـد إلى درجة الخوف والقلق من عـذاب الله لا تأتي إلّا مع المداومـة عـلى العمل الصالح وإدمان تخويـف النفس وتفكرها في تقصيرهـا في طاعة الله، والله الموفِّق أولًا وآخرًا.

فوائد حرمان العبد من الطاعة:

٤٤- **قال ابن الجوزي**: «تأمّلتُ قول سحنون لسفيان: إذا دعوت الله بشيء فمنعك إياه، فاعلم أنّه قد خار لك، فواللهِ ما منعك بخلًا ولا عجزًا».

قال ابن الجوزي: «فتأمّلتُه فوجدتُه لطيفًا جدًا»، قلتُ: وهذا في أمور الدنيا واضح، ولكن قد يشـكل فهم هذا على من يدعو الله بفعل طاعةٍ ما أو ترك معصيةٍ ما، ولا يوفقه الله، فهل في هذا خير؟ والجواب: نعم. قد يكون في هذا خير، فربما ظنّ العبد أنّه قادرٌ على فعل الطاعة بقدرته، وربما أُعجب بنفسه أنّه ترك كذا وكذا من المعاصي، فَمَنْعُه وحرمانه

دواء للعجب وسببٌ لكمال التوكل على الله، فلا حول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلّا بالله، ثمّ في هذا إذلالٌ للنفس وإشعارٌ لها بالتقصير كما أنّ تأخر الإجابة سببٌ لكثرة الدعاء والإلحاح، والله يحب هذا ويثيب عليه.

أهمية مجاهدة العبد لنفسه في الصلاة:

٤٥- صليتُ مرّةً العصر في جماعة فشعرتُ بعد الصلاة بتقصيري وبأنّي لم أكد أخشع فيها فلفت انتباهي شيئان:

(أ) أنّي شعرتُ في هذه الصلاة بالذات أنّي لم أخشع مع كوني لا أخشع في صلوات كثيرة.

(ب) أنّي لمّا صليتُ جعلتُ أبحث في نفسي عن سنن أصليها بعد العصر لأعوض نقص صلاتي، فلم أجدْ سوى ركعتي دخول البيت فلمّا دخلتُ بيتي صليتها لحرصي الشديد على إيجاد سُنّة مع كون نفسي هي التي كثيرًا ما كانت تفعل الرواتب إلّا وهي راغمة، فتفكرت في الأمر وخلصت بالآتي:

۞ أمّا شعوري في هذه الصلاة بالذات بعدم الخشوع، فذلك لأنّي اجتهدت فيها قدر طاقتي وحاولت الخشوع بينما الصلوات الأخرى لم أشعر فيها بالتقصير لأنّي لم أحاول أصلًا، فقلتُ لنفسي: إذًا أول طريق الخشوع المحاولة والاجتهاد، والتوفيق بيد الله.

۞ وأمّا بحثي عن نوافل لأعوض نقص الفريضة، فما نشأ إلّا لشعوري بالتقصير، فقلتُ لنفسي: كأنّ شعورك بالتقصير هو الذي سيؤدي بك إلى مزيد الاجتهاد في طاعة الله دون ملل أو فتور أمّا إذا شعرت بعدم التقصير، فالكسل والفتور حليفان لك.

ما يعين العبد على حسن الخلق:

٤٦- تأمّلتُ حال نفسي عندما تكون مطمئنةً بذكر الله قارئةً للقرآن مكثرةً من الصلاة، فإذا بها لا تكاد تغضب بل تصفح وتحلم ولا تبالي بخطأ الآخرين في حقها بينما وجدتها إذا بعدت عن هذه الطاعات تكون سريعة الغضب والانفعال، فظهر لي أمران:

(أ) أنّ قول النبي ﷺ: «**لا تغضب**»، هو في الحقيقة أمرٌ بالطاعات والذكر والتعلق بالله؛ لأنّ هذا هو أساس حلم النفس واطمئنانها وعدم غضبها.

(ب) دقة قول النبي ﷺ: «**إن حسن الخلق ليبلغ بالعبد درجة الصائم القائم**»، فهذا الخلق الحسن صعب إلا على من يسره الله عليه، وإلّا فالنفس الغافلة عن الذكر والطاعة لا تكاد تستقيم على حسن الخلق، فحسن خلق العبد علامةٌ في الحقيقة على حسن عبادته لله، وما أجمل ما قاله الشيخ ياسر برهامي: «حسن الخلق مع العباد والإحسان إليهم لا يصدر إلّا ممّن أحسن العبادة لله؛ لأنّ إحسان العبادة لله يشعر النفس بالاطمئنان والغنى بالله والأنس به والتعلق به، فلا يسوء خلق العبد لأنّ سوء الخلق إنّما يصدر بسبب شعور النفس بالفقر إلى الناس والحاجة إليهم» انتهى كلامه حفظه الله.

أهمية الدعاء للمؤمنين:

٤٧- تفكرتُ في فضل الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب، وقد قال الرسول ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»، فعجبتُ لهذا الثواب، ولكنّي مع التأمّل وجدتُ في هذا الدعاء ما يبرر هذا ويفسره:

(أ) في هذا الدعاء دليل على حب الخير للمسلمين، فهذا الذي يدعو بالمغفرة للمسلمين لو استحضر حبّ الخير لهم وطلب السعادة لهم لقام بقلبه من الإيمان ما لا يقوم بغير هذا العمل.

(ب) كذلك في الدعاء للمؤمنين علامةٌ على حسن الخلق وسماحة النفس، وأنّ الداعي لا طمع عنده ولا أنانية ولا حقد ولا حسد، وهذه أخلاق الكمال، وفي الحديث: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**».

(جـ) أنّ هذا الدعاء إنّما يُقبل من عبدٍ استحضر تقصير نفسه في طاعة ربه، فهو يسأل ربه المغفرة لنفسه مع المؤمنين، وكمال العبد في استحضاره لتقصيره في حق ربه، وأمّا مَنْ يقوم بقلبه عند هذا الدعاء أنّه إنما يدعو للمؤمنين، وأنّه ليس في حاجةٍ إلى ذلك، فهذا لا يُقبل دعاؤه.

فضل إسكان المسلم لأخيه:

٤٨- تأمّلتُ حديث: «**من أجنّ مسلمًا في قبر أجري عليه أجره كأنّما أسكنه مسكنًا إلى يوم القيامة**»، فقلتُ: فكيف بمن أسكن أخاه الحي في مسكنٍ ووهبه له أو آجره له بأجرة زهيدة؟؟ وإذا كان هذا ثواب سُكْنى الميت، فكيف بثواب سكنى الحي؟؟ بل كيف بثواب أب أسكن ابنه في شقة تؤويه هو وزوجته، فكأنّي بهؤلاء الآباء يأخذون ثواب سكنى نفسين، ثمّ لو قُدِّر للزوجين أولاد لأخذ ثواب سكنى الأولاد كذلك... فأهمس بذلك في آذان آباء معهم أموال ويبخلون على أولادهم بالسكن بحججٍ ربما كانت واهية أو غير معتبرة شرعًا.

اليقين في وعد الله ورسوله:

٤٩- قال لي بعض الصالحين ـ نحسبه كذلك والله حسيبه ـ قال لي: إذا رأيت محتاجًا فتصدق عليه بما يحتاجه وسأعطيك ما تصدقت به، فرأيتُ نفسي كلما وجدت محتاجًا تصدقت عليه بلا بخل ولا كسل وهي تقول: سيعطيني هذا الصالح ما تصدقت به، فقلتُ لها: أتصدقين وعد الغني من البشر.. فكيف بوعد الغني رب البشر؟؟ ألم يعدك مكان الصدقة عطاءً، وفي الحديث: «**ما نقص مال من صدقة**»، فيا ليتني ويا ليت إخواني المسلمين يصدقون بوعد الله، ولا يبخلون بالصدقات...

ادعوا للمشايخ ولإخوانكم المسلمين:

٥٠- تأمّلتُ ما ورد عن الإمام أحمد أنّه كتب ورقةً فيها أسماء أناس صالحون يدعو لهم كل ليلة منهم الشافعي وغيره، فقلتُ: يا ليتني ويا ليت إخواني يفعلون مثله، نقوم في الليل وبين الأذان والإقامة ندعو لمشايخنا مشايخ الدعوة ـ بارك الله فيهم وحفظهم للمسلمين ـ ندعو لهم بالصحة والعافية ليبذلوا للإسلام، وندعو لهم بالبركة في أوقاتهم، فكم أخذوا من أوقات أولادهم وزوجاتهم من أجل التزامنا والتزام الناس، ومن أجل تعليمنا وتعليم الناس.. وكم قضوا الأوقات يقرأون ويبحثون عن العلم حتى يكفوا الناس ويفتوهم فيما يجدّ لهم من مسائل، ففضلهم علينا أكثر من فضل الآباء والأمهات، فالوالدان سبب وجود بدننا وحياته، وهم ـ بفضل الله ـ سبب حياة قلوبنا وأرواحنا بالإيمان.

ثمّ ندعو كذلك للمسلمين المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها، وندعو للمظلومين من المسلمين في كل مكان، فذلك والله سببٌ لصلاح القلب أيما صلاح بل هو كذلك العلاج النافع لقسوة القلب التي قد تعتريه عند تناول الشهوات المباحة.

معاني طيبة في أذكار الصباح والمساء:

٥١- سمعتُ من الشيخ ياسر برهامي كلامًا طيبًا، فأحببت نقله، قال فضيلته: «حثَّ الشرع على الذكر وقتي الصبح والعصر ورغَّب في أذكار الصباح والمساء، ولعل من حكم ذلك أنّ هذين الوقتين هما أول النهار وآخره، فكما مرّ يوم المرء سريعًا كذلك تمرّ حياته وتنقضي سريعًا، فابن آدم أيام مجموعة كلما ذهب يوم ذهب بعضه، وإذا ذهب البعض أوشك الجميع على الانقضاء، فعلى المؤمن استحضار هذا المعنى صباحًا ومساء».

ما يُصبِّر العبد على بلاء الحبس في سبيل الله:

٥٢- تأمّلتُ حال أناس سُجنوا في الله أيامًا والبعض شهورًا والبعض سنة والبعض سنين، فقلت في نفسي: ما الذي يعين على الصبر على هذا البلاء، فتفكرتُ فوجدتُ أناسًا

سافروا للعمل في خارج بلادهم، وتركوا الأهل والولد، فبعضهم سافر أيامًا وبعضهم شهورًا والبعض مكث في أمريكا خمس سنين دون أن يرجع إلى بلده حتى يحصل على بعض التأشيرات، فقلتُ لنفسي: سبحان الله كيف صبر هؤلاء على الغربة من أجل ما يُحصِّلون من الدنيا، أفليس من حُبس عن أهله في الله أولى بالصبر؟ وإذا كان أهل الدنيا يُصبِّرهم ما يُحصِّلون من مالٍ وما يؤمِّلون من مستقبلٍ سعيد، فأهل الآخرة أولى بذلك؛ فثوابهم لا يقدِّره إلّا الله، فقالت لي نفسي: إذًا ما الذي يصعب الحبس على النفس وما علاجه؟ فقلتُ لها: عدة أمور:

(أ) شعور النفس بالحرمان، فإذا بها تتطلع إلى الحرية، فعلى العبد المحبوس أن يعلم أنّ الدنيا دار بلاء، أفيودّ لو كان معافىً وهو على غير الالتزام؟ ثمّ ليعلم أنّ البلاء له وقت سيزول فيه ولو طالت مدته، فعليه أن يلجأ إلى الله طالبًا منه العون على الصبر والرضا.

(ب) القلق على الأهل، فعلى المحبوس أن يعلم أنّ الله أرحم بأهله منه، وليعلم كذلك أنّ الله أرحم به من أهله، فثواب صبره على البلاء أفضل لهم، فليدع المحبوس ربه أن يلهم أهله الصبر والرضا، وليعلم أهله أنّ الله مع المحبوس يحوطه ويحفظه، ومن كان الله معه، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلا داعي للقلق والاضطراب.

(جـ) الشعور بالملل، فعلى المحبوس أن يشغل وقته بالعبادات التي قد فرّط فيها أو فاتته رغمًا عنه وهو غير محبوس من أذكار وصلوات وقرآن، فالوقت لن يكفيه لمجرد التعويض، فكيف يملّ؟ وليعلم أنّ الله معه يعينه ويثبته، والله المستعان.

٥٣- تأمّلتُ ما ورد عن بعض السلف أنّه مرّ براهب يتعبد في صومعته، وقد اعتزل الناس وسكن في صومعته، فقال له: ما الذي يصبّرك على هذا؟ فقال له: أَقِمْ معي ليلة لتعلم، فأقام معه فوجد الناس يأتونه من كل مكانٍ يتبركون به ويعظمونه، فقال الراهب

للرجل الصالح: هذا الذي يصبرني، فقلتُ: أفليس مَنْ كان على الحق وسُجن في الله أولى به أن يصبِّره ما سيكون له من مكانةٍ عند الله وعند الناس، فأهل البلاء أئمّة عند الله وعند الخلق إذا صبروا وأيقنوا؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٧٣)، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ (النحل:٤١)، فحسنة الدنيا ثناء الناس ومحبتهم له ودعاؤهم له، وهذا حاصل لكل من حبس في الله؛ إذ له نصيب من الهجرة في الله ولله.

حال السلف في الصيام:

٥٤- تأمّلتُ حال السلف ـ رحمهم الله ـ في أيام صيامهم، وقارنتُ بين حالهم وحالنا، فوجدتُ بونًا بعيدًا، فبحثتُ عن سرّ ذلك، فتبين لي الآتي:

(أ) أنّ السلف كانوا يهتمون بقبول العمل، لا بكثرته ولا بكمّه، ولذا كانوا يحرصون على أدائه على وجه الكمال المقدور، وأمّا الناس اليوم، فقد صاروا ـ إلّا من رحم الله ـ لا همّ لهم إلّا الكمّ حتى أنّ أحدنا لربما صام الأيام الكثيرة، ومع ذلك لا يكاد يجد في قلبه التقوى التي شُرع الصيام من أجلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، بينما كان الواحدُ من السلف يجد في قلبه الإيمان والتقوى بصيام يومٍ واحد.

(ب) أنّ السلف كانوا يستعدون للعمل الصالح قبله، ويحرصون على إتقانه وإحسانه، ثمّ يخافون بعد العمل ألّا يُقبل منهم، ولذا جاء عن كثيرٍ من السلف أنّه قال: «لا يكن يوم صوم أحدكم ويوم فطره سواء»، وأمّا نحن، فقد صار الصيام عندنا ـ إلّا من رحم الله ـ مجرد عادة تؤدّى دون أن يحرص أحدنا أثناء صيامه على مزيد تحفظٍ أو مزيد

مراقبةٍ لله عزّ وجلّ، فضاعت علينا فائدة جليلة من فوائد الصيام، وهي أنّ العبد إذا كان يوم صيامه زادت مراقبته لربه، وزاد تحفظه من المعاصي والمخالفات، فلا يزال يعتاد ذلك في أيام صيامه حتى يسهل عليه ذلك في بقية أيامه، فيصير هذا هو حاله اللازم له.

(جـ) أنّ السلف كانوا يعرفون فضل الله عليهم، فإذا وفق أحدهم لصيام يومٍ شكر ربه عليه لعلمه بأنّها نعمة قد حُرمها كثير من الناس، وأمّا نحن ـ إلّا من رحم الله ـ فلا نستشعر نعمة التوفيق للطاعات.

(د) أنّ السلف كانوا شديدي الخوف من الآخرة، فكان لسان حال أحدهم إذا صام يومًا أو صلى ركعتين أو فعل أيّ طاعة، لسان حاله يقول: عسى أن يغفر الله لي ويعفو عني بهذه الطاعة، فصلحت قلوبهم بطاعاتهم، ولو كانت قليلة، بخلاف حال أكثر الناس اليوم.

obeikandl.com

الفَصْلُ الخَامِسُ

تأمّلات في آيات قرآنية

١ - تأمّلتُ فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ جمع أصحابه، وسألهم عن هذه الآية: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البَقَرَة: ٢٦٦).

وقلتُ: لِمَ اهتمّ بها عمر هكذا، فإذا بها أشدّ آيةٍ مخوفةٍ في كتاب الله؛ وذلك لأمور أذكرها بعد ذكر معنى الآية:

معنى الآية: «لو عمل العبد الصالحات لانتفع بها هو وذريته من بعده سواءٌ تصدق أو عمل أيَّ عملٍ صالح آخر، بل الكون كله يستفيد منه؛ كالحديقة والبستان ينتفع منها الطير والحيوان والإنسان كما ينتفع بها صاحب البستان وورثته، فإذا منّ العبد وراءى أتته أعاصير الإفساد لعمله، فيضيع ثواب عمله ويضيع ماله، وتضيع ذريته من بعده».

المخوفات في الآية:

(أ) قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي كما أنّ الجنّة فيها من كل الثمرات كذلك هذا الرجل كان يعمل طاعاتٍ كثيرةً متنوعةً، ومع ذلك خُتم له بسوء الخاتمة بسبب مَنِّه في الصدقة، فكيف بمن ليس له إلّا طاعة واحدة أو طاعات قليلة؟

(ب) قوله: ﴿ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يدل على أنّه ذاق حلاوة الطاعة، وقطف من ثمارها، فإذا كانت هذه نهاية حاله، وقد ذاق من حلاوة الطاعة، فكيف بمن هو مبتدئ لم يذقها بعد؟

obeikandi.com

(جـ) قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ ولم يقل: «أعاصير فيها نيران»، فكأنّ آفة المنّ وحدها، وآفة الرياء وحدها، وآفة الأذى وحدها كافية لسوء الخاتمة، فكيف لو اجتمعت الآفات كلها؟

(د) قوله: ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾: أي حبط العمل كله، وهذا لا يكون إلّا في المشرك، فهو الذي يحبط عمله كله بخلاف العاصي، فإنّه لا يحبط ثواب العمل الذي أخلص فيه من قبل.

والله لو كان التهديد بأن يموت على كبائر بسبب ريائه ومَنّه لكانت مخوفة.. فكيف وهو مهدد بالكفر..

(هـ) قوله: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ يدل على أنّه عمل السوء ثمّ لم يتمكن من فعل الخير بعدها، فختم له به، كهذا الذي كبر ولم يستطع تعويض ما فات.

(و) قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ احتراقها يدل على تلفها تلفًا لا صلاح معه، فالرياح المجردة قد تأخذ الشجر والنخل وتلقيه بعيدًا، وربما زرع في أراضٍ أخرى بعدُ فانتفع به، أمّا هذا فقد احترق، فكأنه لن يُسْلِم بعد ردته، بل يموت على الكفر.

فسبحان الله كم فيها من تخويفٍ وتهديدٍ.. فجديرٌ بعمر أن يجمع لها الصحابة.

٢- تأمّلتُ في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البَقَرَة:٢٦٥)، فوجدتُ فيها كنوزًا من معاني الإيمان، فأحببت ذكرها ولكني أذكرها بعد ذكر معنى الآية:

معنى الآية: «مثل المتصدق المؤمن كمثل حديقة على ربوة مرتفعة، فارتفاع الحديقة هو ارتفاع عمله، فالصدقة عمل صالح رفيع، ثمّ الربوة عرضةٌ لكل خيرٍ من نزول المطر الوابل الذي ينبت معه نبت كثير أو نزول الطّل الذي ينبت معه الثمر القليل، وذلك على حسب قلب العبد، فمن تصدق بحبٍ وسعادةٍ، فمثله كمثل الوابل، ومن تصدق ونفسه تلومه ـ وهي كارهة ـ ولكنّه أطاع الله ـ وإن كرهت نفسه ـ فمثله كمثل صاحب الطّل».

معاني الإيمان:

(أ) قوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولم يقل: «لأنفسهم»؛ لأنّ العبد قد يتصدق ليثبت على الإيمان بسبب الصدقة ونفسه كارهة، فلذا لم يقل «لأنفسهم» بل قال: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ليدل على أنّه فعلٌ صادرٌ من أنفسٍ راضيةٍ غير كارهة.

(ب) قوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولم يقل: «ثباتًا من أنفسهم»؛ وذلك لأنّ العبد قد ينفق المال ونفسه ثابتة لا تجزع كالعاص بن وائل وحاتم الطائي وغيرهما من كُرَماء العرب، ولكنّه لا يحتسب الثواب عند الله، فقوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا﴾ يدل على أنّه خائفٌ يطلب الثبات من الله بصدقته، فهو يبتغي وجه الله ويخاف الحساب.

(جـ) في هذا المثل دليل على كون الصدقة بثبات نفس من أكبر أسباب حسن الخاتمة، فيا أيها الخائفون من سوء الخاتمة، ويا أيها العلماء المشفقون... ويا أيها الزهاد المتعبدون... أمامكم جميعًا باب الصدقة، ومن كان منكم فقيرًا بالمال، فلا يبخل بصدقة العلم، والله المستعان.

٣- تأمّلتُ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة:٢٥٦)، فوجدتُها من الآيات العظيمة لتوضيح نجاة العبد بالإسلام، وهلاكه بغيره من الأديان، فالعروة الوثقى هي الحبل النازل من عروة

موثقـة جيدًا كحبـل موثق على حديدة قوية ينزل منها طرف إلى أسـفل، فكما أنّ الذي في أسفل البئر أو أسفل الجبل لا يصعد إلّا بالعروة الوثقى، فكذلك لا ينجو العبد من سفل المعـاصي والإشراك إلّا بـلا إلـه إلّا الله، فهي العـروة الوثقى، ولمّـا كان الخوف أن تكون العروة غير قوية، فيقع الممسـك بها، أخبر سـبحانه أنّ العروة وثقى لا تنفصم ولا تنقطع بمن أمسـك بها، ولكن ليحذر مَنْ أمسـك بها من تركها ويرتد فإنّه مقتول إن فعل ذلك كما أنّه من ترك العروة بعد إمساكها وقع وهلك.

٤- تأمّلـتُ قولـه عـزّ وجـلّ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البَقَرَة: ٢٤٥)، فقلـتُ لنفسي: لِمَ قال: ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: «يقرض الناس»؟

فتأمّلتُ فإذا فيها معانٍ عظيمة، فأحببتُ ذكرها:

(أ) أنّه لو افتقر غني واستقرض الناس، وكان هذا الغني مشهورًا معروفًا لتسارع النـاس إلى إقراضه بلا تردد لينالـوا الشرف؛ ليقال: إنّهم أقرضوا فلانًا، فقيل للمتصدق: إذا تصدقت، فكأنّك أقرضت الغني سبحانه، فسارع لتنال الشرف.

(ب) إذا أحـب العبـد أخًا له، واحتاج إلى المال، فإنّه يقرضه بلا تردد بل ربما أعطاه المال دون أن ينتظر منه شيئًا، فقيل للمؤمنين: مَنْ كان منكم يزعم محبة الله، فليقرضه ولا ينتظر ردّ المال ثانية أي: ليتصدق بالمال أو ليهب القرض لأخيه ولا يأخذه ثانية.

(جـ) إذا أقرض العبد غيره فإنّه يخاف أن يكون المقترض غنيًا مماطلًا أو فقيرًا لا يجد ما يسد به، فقيل له: أقرض ربك فهو غني كريم.

٥- تأمّلـتُ قـول الله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدًا﴾ (البَقَرَة: ٢٦٤)، فوجـدتُ فيه معاني عظيمة، فأحببتُ ذكرها:

(أ) الصفوان هو الحجر الأملس الكبير إلّا أنّ التراب عليه قد غطى حقيقته حتى ظنّه الناظر أنّه أرض صالحة للنبات، فلمّا نزل المطر الشديد ظنّ الناس أنّها ستنبت كما هي عادة الأرض الطيبة عند نزول المطر خاصةً وأنّ المطر كثير، ولكنّ حقيقة الحجر ظهرت بانكشاف التراب عن حجر أملس لا يصلح للنبات، كذلك العمل الصالح لو راءى به صاحبه، فإنّه يظهر على صورةٍ صالحة ولكنّ الله يكشف حقيقته، ولو بعد حين، ويبقى قلب المرائي كالحجر الأملس لا إيمان فيه، فأرض قلبه غير صالحة لنبات الإيمان فيها.

(ب) وكما أنّ وضع البذرة والتربة الصالحة لا يكفي لخروج النبت بل لابد من نزول المطر من عند الله، فكذلك العمل الصالح وإخلاص صاحبه إنّما هو بذر، ولابد من نزول مطر الهداية والقبول من عند الله حتى ينبت الإيمان في قلب العبد.

(جـ) ويلاحظ أنّ الله أزال التراب لتظهر حقيقة القلب، ولم تكنْ العقوبة بمجرد انعدام إنبات الزرع، فليحذر المنافق المراءي أن يُفضح بين النّاس فضلًا عن عدم انتفاعه بعمله.

٦- تأمّلتُ قول أيوب: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣)، فوجدتُ فيه معاني بديعة، فأحببتُ ذكرها:

(أ) أنّه قال: «رب» ولم يقل: «إلهي»، كأنّه يقول: أنت خلقتني ورزقتني وتقضي لي حوائجي، وهذه من حوائجي، فاقضها لي.

(ب)أنّه قال: ﴿ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وهي أعجب ما في الآية ولها احتمالان:

۞ أنّه قصد: أنت أرحم بي من كل أحد حتى من أبواي، فلو كان الشفاء بيد أبواي لما منعاني منه، وأنت أرحم بي منهما، فاشفني، وأخبرنا بعض الملتزمين بالشرع: أنّه كان إذا نزل به مأزق يقول: «لو كان الأمر بيد أبواي لخلّصاني وأنت ربي وأرحم بي منهما»، فكان يزول بلاؤه بإذن الله.

۞ ويحتمل أنّه قصد أنّي لا أسألك شكًا في رحمتك، فأنت أرحم الراحمين، ولكنّي أسألك طلبًا للصحة حتى أستطيع القيام بالعبودية على أكمل وجه.

٧- تأمّلتُ قوله تعالى عن يونس: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧)، مع قول الرسول ﷺ: «**ما من مسلم يدعو بها إلاّ استجاب الله له**»، فرأيتُ في هذا الدعاء شروط التوبة والإنابة، فنزول البلاء سببه الذنوب ورفعه بالتوبة، فمن صدق في توبته ودعا بهذا الدعاء زال بلاؤه بإذن الله، فتأمّل قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فهو يتضمن التوحيد لأنّ المعصية سببها اتباع الهوى، كأنّ العاصي يقول: لم أفعل المعصية شركًا وتفضيلًا للهوى عليك يا رب ولكنّها زلة، ولذلك كانت كلمة: «لا إله إلا الله» تتضمن الاستغفار لهذا المعنى، ففي الحديث: «**ما من عبد يقول لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت له ذنوبه**» (رواه الترمذي وصححه الألباني)؛ وذلك لأنّ القائل لهذا الدعاء بقوله: «**لا إله إلا الله**» ينفي احتمال جعل الهوى إلهًا، وبقوله: «**الله أكبر**» يكون قد اعترف بأنّ الله أكبر من الهوى والشهوات في قلب التائب، وأمّا قوله: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، فهو إخبار بأنّه عازم على ترك المعصية، ولكن لابد من إعانة الله له، فهو ما وقع في المعصية السابقة إلّا بترك إعانة الله له.

ثمّ تأمّل قول يونس: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ كأنّه ينزه الله عن أن يكون قد عظم الهوى والشهوات أكثر من تعظيمه لربه، ثمّ تأمّل قوله: ﴿كُنتُ﴾ يدل على أنّه عازم على عدم العودة إليه، ثمّ قوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كأنّه يقول: أنا من عداد عبادك الذين ظلموا أنفسهم وغفرت لهم، فاغفر لي كما غفرت لهم، ولذلك لم يقل: «ظالمًا»، والله أعلم.

٨- تأمّلتُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن

يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور: ٤٣)، ثـمّ قال بعدها: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور: ٤٤)، ثـمّ قـال بعدها: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ (النور: ٤٥)، فرأيـتُ عليها أنوارًا من الهدايات فتأمّلتُ، فإذا هي سـورة النور، فما أعظمها من آيات، وما أنفع سورة النور لمن طلب المعارف، والله المستعان:

۞ يخبر سبحانه أنّه يزجي سحابًا أي: يسوقه سوقًا رفيقًا حيث شاء، ثمّ يضمه بعضًا إلى بعـض، ثـمّ يجعله متراكمًا بعضه على بعض، ثمّ ينزل المطر مـن خلاله، كذلك ينزل الله من قطع عظيمة في السماء تشبه الجبال ينزل منها البرد، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، فكذلك الهداية تأتي إلى قلب العبد شيئًا فشيئًا، وتجتمع شيئًا فشيئًا حتى تجتمع معاني الإيمان في قلب العبد المؤمن وتسـتقر، ثمّ يدعو غيره إلى الإيمان هكذا حال بعض الناس، وبعضهـم تأتيه الهداية مـن الله دفعة واحدة، فتصيب قلبه كالـبرد الذي ينزل مرة واحدة، فيـكاد حالـه أن يبهر الناس كيف اهتـدى مرّةً واحدة وكيف تغير حالـه هكذا، أمّا الأول فبشـائر تغـيره كانت ظاهـرة، فالتزامه واكتمال حالـه كان على فترات، فلم يكن مسـتغربًا بخـلاف الثـاني، فإن قال قائـل: فما فائـدة وجود العـاصي إذًا؟ قيل له: العـاصي والمؤمن كالليـل والنهـار، فالعامـل بالنّهـار إن لم يجد ليلًا يسـتريح فيه تعسر عليه العمـل بالنهار، فوجود الليل هامّ لحسن العمل في النهار، وكذلك وجود العاصي هامّ للمؤمن، وإلّا فمن سـيدعو المؤمن، ومن ينصح إذا لم يوجد عصاة؟ ومن سـيجاهد ومن سـيبغض في الله إن لم يوجـد عصـاة؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار! ثمّ وجود التنوع ليس مسـتغربًا ـ لتظهر قدرة الله وحكمتـه ـ فهـا هي الدواب تتنـوع، فمنها من يمشي على بطنـه، ومنها من يمشي على رجلـين، ومنهـا من يمشي على أربع، ثمّ مع هذا التنوع ربـما تغير حال الطائع إلى المعصية، وربما تغير حال العاصي إلى الطاعة كتقلب الليل والنهار، فسبحان من هذا كلامه!!

٩- تأمّلتُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرَّعْد: ١٧)، فرأيتُ فيه مثلًا من أعظم أمثلة القرآن ـ إن لم يكن أعظمها ـ وفيه يشبِّه الحق سبحانه الهداية التي تنزل على القلوب بالماء النازل من السماء إلى الأودية، فكما أنّ الماء لا غنى لمخلوق عنه كذلك لا غنى لأحد عن الهداية، وكما أنّ الأودية لا تحمل من الماء إلا قدر اتساعها كذلك القلوب لا تتلقى من الهداية إلا على قدر سعتها، فلو قلّ نصيب هداية عبدٍ، فليس لقلّة الهداية، وإنّما لقلة سعة قلبه هو عن حمل الهداية، ثم يبين الله مثلين لما يعرض لهذه الهداية، ويمنع الناس من طلبها، وذلك أمران:

١- الباطل الذي يعلو الحق أحيانًا، فهو سبب امتناع كثير من الناس عن الالتزام، فضرب له الحق مثلًا بالزبد من رغاء وقشٍّ يعلو الماء، ثمّ يلقيه الماء عن ظهره، ووجه التشابه من أوجه:

(أ) كما أنّ الزبد إذا علا الماء لم يَرِدْ كثيرٌ من الناس هذا الماء ليشربوا منه، وإنّما يرده أهل البصيرة لينفوا عنه القش ويشربوا الماء الزلال، فإذا صفا وَرَدَه الجميع، كذلك حال الباطل مع الحق فإنه إذا علا الباطل لم يَرِدْ ماء الحق إلّا أهل البصيرة ينفون عنه الباطل، فإذا صفا الحق اتبعه الجميع.

(ب) أنّ السيل هو الذي يحمل الزبد فوق متنه ليلقيه على الشاطئ، كذلك الحق هو الذي يحمل الباطل فوقه ليلقيه عن ظهره، فلم يعلُ الباطل بنفسه بل قيّض الله له أسباب علو ليفضحه ويفضح أهله، ويصفو الحق بعدُ.

(جـ) أنّ زبد البحر تزداد قوته كلما اقترب من الشاطئ، وكذلك الباطل تزداد قوته كلما اقترب من فنائه وانعدامه، فأبشروا والله خيرًا يا أهل الإيمان.

(د) أنّ الزبد لا قيمة له ولا وزن له إنّما المهم الماء، كذلك الباطل لا وزن له، والحق هو الذي له البقاء.

٢- وأمّا المانع الثاني، فهو فتنة واختبار أهل الحق الذين اختاروا طريق الحق حيث يبتليهم الله ليمحصهم، فيُعرِض الناس عن طريقهم خشية الفتنة والبلاء، فضرب له الحق مثلًا بإدخال الذهب والفضة أو المعادن التي ينتفع الناس بها في النار، ووجه التشابه من أوجه:

(أ) مالك الحلية أو الحديد هو الذي يدخله النار لينقيه، كذلكم الله مالككم هو الذي يدخلكم نار الابتلاء لتخرجوا على أحسن حال، فلا تنظروا عند نزول البلاء إلى من جرى على يديه بل انظروا إلى اختيار ربكم، فالبشر آلةٌ والرب يقدِّر البلاء على أيديهم لمصلحتكم.

(ب) أنّ المعدن الذي يدخل النار كلما أحميت عليه الحرارة كلما خرج أنقى، كذلك المؤمن كلما زاد عليه البلاء كلما هذبت نفسه وزاد ثوابه.

(جـ) أنّ الذهب والفضة والمعادن التي فيها متاع الناس لا يستغني عنها الناس وقيمتهن عظيمة عند الناس، كذلك الدعاة خاصةً مَنْ يُبتلى منهم هم أعلى الناس قدرًا عند الناس، كما هم عند ربهم.

(د) أنّ صاحب المعادن لا يدخل النار من المعادن إلّا ما يُرجى نفعه وخيره، كذلك الله لا يبتلي من عباده إلّا الأمثل فالأمثل، والله أعلم.

١٠- تأمّلتُ قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٨٨)، وحديث: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»، ورأيت كثرة تشبيه المؤمن بالطائر، فتفكرتُ في وجه التشابه بينهما فتبين لي الآتي:

(أ) الطير رقيقة كما أنّ قلب المؤمن رفيق رحيم رقيق.

(ب) الطير يخرج من العش ولا رزق فيه، ويخرج وهو أخمص البطن، ولا يعلم من أين يأتيه الرزق، ومع ذلك يتوكل على الله ولا يجزع، وكذلك المؤمن المتوكل حقًا، خاصةً وهو يستطيع تحصيل الكسب بنفسه، والابتكار في أسبابه، فإنّه يتوكل على الله، ولو انعدمت كل أسباب الرزق.

(جـ) أنّ الطير لا يحمل همّ الرزق كذلك المؤمن الكامل في إيمانه لا يحمل همّ الرزق، فهو بيد الله.

(د) الطائر في الغالب يكون في علوه، ولا ينزل إلى الأرض إلّا ليأخذ حاجته، كذلك المؤمن قلبه معلّق بالآخرة لا ينزل إلى الدنيا إلّا ليأخذ حاجته منها ثمّ يصعد إلى السماء.

(هـ) أنّ الطائر آمن ما يكون وهو في السماء، فإذا نزل إلى الأرض سهل صيده، كذلك المؤمن إذا كان قلبه متعلقًا بالآخرة كان أبعد ما يكون عن الشيطان، فإذا تعلّق بالدنيا سهل على الشيطان صيده.

١١- تأمّلتُ قوله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ ﴾ (التوبة:١٢٣)، فقلتُ: لِمَ أُمِرَ المؤمنون بالجهاد والشدة على الكفار؟ خاصةً وأنّه قد عاب الكفار على الإسلام مشروعية الجهاد، فتفكرتُ في أمر الجهاد في الإسلام، فإذا به من مزايا الإسلام الكبار التي لو يعلمها الكفار لما عابوا الإسلام.

الحكم العظيمة في مشروعية الجهاد: هذه الفريضة اعتاد المستشرقون أن يتخذوها سلمًا للطعن في الإسلام، ووصفه بأنّه دين الوحشية والإرهاب، فقام بعض

المسلمين الجاهلين بالردّ عن الإسلام بقولهم: ما شُرِع لنا الجهاد إلّا دفاعًا عن النفس، أمّا جهاد الطلب؛ من الذهاب إلى البلاد لنشر الإسلام فيها، فلَمْ يُشرع لنا وظنّ أنّه بذلك سيدافع عنّا أو سيرفع المسبة عن ديننا!! ويكفي في الرد على هؤلاء إجماع العلماء على خلاف قولهم، وكذلك يرد عليهم قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ (التوبة:٣٦)، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وقوله ﷺ: «**اغزوا باسم الله.. قاتلوا من كفر بالله**»، وهو عام في كل الكفار، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (التوبة:٢٩)، وهو عام أيضًا، ولعل هؤلاء المسلمين لو علموا ما في هذه العبادة والفريضة من حِكَمٍ لتفاخروا بهذه الفريضة فضلًا عن أن يتحرجوا منها، وقبل أن أذكر حكم هذه العبادة أذكر أنّ الحقيقة شاهدة بكون هؤلاء الكفار هم الإرهابيون، فالتاريخ يشهد بأنّ عدد قتلى الكفار في كل المعارك التي خاضها المسلمون في الجهاد لا يقارنون أصلًا بكمّ المسلمين الذين قتلهم التتار لمّا دخلوا بغداد أو الذين قتلهم الكفار الأوروبيون وغيرهم في بلاد المسلمين، وانظر إلى هؤلاء الكفار لا يبيحون للمسلمين قتل الكفار في سبيل نشر الحق ونشر المبادئ الربانية السامية، ويبيحون لأنفسهم قتل الأطفال والنساء والعُزَّل من المسلمين في سبيل الدنيا أو كراهية منهم لمسمّى الإسلام!! فهل هذه هي العدالة التي يزعمونها؟!

حِكَم الجهاد:

لمّا كان كثيرٌ من الكفار لا يعرفون حقيقة الإسلام بل ربما بلغهم عن الإسلام كلام مزيف وصورة شائنة أمر الله المسلمين بدعوتهم إلى الإسلام، فإن رفضوا قبوله فرضت عليهم الجزية يدفعونها عن ذلةٍ وصغارٍ، فإن رفضوا قوتلوا، ففي الجهاد أربعة أمور:

١- مسلمون مأمورون بالجهاد.
٢- دعوة الكفار إلى الإسلام.
٣- جزية يدفعها الكفار.
٤- قتال للكفار.

وفي كل واحدة من هذه الأربع شرع الإسلام أحكامًا عظيمةً للغاية:

١- المسلمون المأمورون بالجهاد:

الجهاد يقتضي ترك الوطن وترك المال وترك الأهل وربما أدى إلى الموت... فانظروا أيها الكفار من أجل مصلحتكم، ومن أجل دعوتكم إلى الحق وهدايتكم أُمِرَ المسلمون بترك المال والوطن والأهل... من أجل ما تعيشون فيه من الظلمات والجهل والضلال شُرِع الجهاد.

ألم يقل قائل منكم: «سأمت الحياة وما فيها»؟؟ ألم تعلموا ما ذكرتموه في إحصائية بكون أكبر نسبة انتحار في العالم في دولكم، وأكثرها دولة السويد التي فيها أعلى نسبة دخل للفرد في العالم؟؟ ألم يقل مستشرقون منكم: ما أحوج الغرب إلى تعاليم الإسلام وسعادة المسلمين؟؟ ألم تقل امرأة منكم: يا ليتني كنتُ امرأة شرقية عربية؟ ألم يقل أغنى ممثلٍ منكم: كنتُ ميتًا، وما حييتُ إلا بعدما أسلمت؟؟ من أجل ذلك كله أُمِرَ المسلمون ـ فرضًا عليهم ـ بالذهاب إليكم لدعوتكم؟ كان كافيًا والله أن تُتْرَكوا دون دعوة، وما في قلوبكم من فطرة تدعو إلى الإسلام، وما في نفوسكم من غمّ وحزنٍ يدعوان إلى طلب السعادة الحقيقة، كان ذلك كافيًا في محاسبتكم على غرار هذا، ولكن مع هذا شرع الله الجهاد، أفتلومون الإسلام على أن فرض ـ من أجل مصلحتكم ـ على المسلمين ترك الديار والمال؟ ولكن لمّا كان الأمر شاقًا على نفوس المسلمين قيل للمجاهدين: ماذا تريدون ولماذا شق عليكم الجهاد؟ فإن قالوا: مَنْ لأهلنا وولدنا؟ قيل لهم: سنقول للمسلمين: «**من خلّف مجاهدًا في أهله بخير كان كمن جاهد**» (حديث صحيح)، وسنحذر المسلمين من حرماتكم في غيابكم، وسنقول لهم: «**من خان مجاهدًا في أهله أوقف له يوم القيامة، وقيل له خذ من حسناته ما شئت، فهل ترونه تاركًا له شيئًا**» (حديث صحيح)، فإن قال المجاهدون: مَنْ لمالنا ومَنْ يتكسب لنا؟ قيل لهم: سنبيح لكم

أخذ الغنائم والمكاسب من الجهاد تعويضًا لكم مع أنّنا حرمنا هذا على من كان قبلكم، فإن قال المجاهدون: نحب الحياة ونكره الموت؟ قيل لهم: لا تخافوا، فالشهيد ليس بميت والجهاد لا يقدّم الموت، فأيها أفضل أن يقتل المرء مجاهدًا أم يموت على فراشه؟ فإن قال المجاهدون: نخشى ألم القتل والجراح؟ قيل لهم: «**لا يجد الشهيد من ألم الموت إلاّ كما يجد أحدكم من مسِّ القرصة**» (حديث صحيح)، بينما سكرات الموت على الميت جبال من الآلام، وقد قال علي بن أبي طالب: «سكرات الموت أشد من ثلاثمائة ضربة بالسيف»، فإن قال المجاهدون: لنا ذنوب نريد التوبة منها؟ قيل لهم: «**يُغفر للشهيد مع أول دفعة من دمه**»، فإن قالوا: نخشى وعثاء السفر وصعوبة الانتقال؟ قيل لهم: مع كل خطوةٍ حسنات وتكفيرٌ للسيئات، والحياة كلّها تعب سواءٌ في سفركم أو في إقامتكم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البَلَد: ٤).

٢- دعوة الكفار إلى الإسلام:

فإذا وصل المسلمون إلى بلد الكفار لم يقاتلوهم بل يدعوهم أولًا إلى الإسلام كما في الحديث: «**فادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفّ عنهم، فإن أبوا فاسألهم الجزية، فإن أعطوها فاقبل منهم وكُفّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**» (صحيح)، وذلك لأنّ غرض الجهاد نشر حِكَم الإسلام العظيم على البلاد، فكم من معاملات فاسدة يتعامل بها الكفار، وكم من ضياع للأموال والحقوق عندهم؟ وكم من سرقة وقتلٍ وزِنًا عندهم؟ فمن أجل إسعادهم بأحكام الإسلام شرع الجهاد، ومن قرأ الفقه الإسلامي، وعرف أحكام الإسلام العظيمة صَدَّق ما أقول.

٣- جزية يدفعها الكفار:

ويدفعونها عن ذلةٍ ويُفرض عليهم ملبس معين وشكل معين للشعر ولا يمكنون من أعمال معينة؛ كلّ ذلك ليشعروا بالذلة - لا- لأنّ الإسلام دين التكبر والجبروت...

ولكـن لأنّ النفـس مجبولة على محبة العزة، فعسـى أن تدعو هذه الذلـة الكفار إلى دخول الإسـلام، ولو من أجل العزة، فإذا دخلـوه وذاقوا حلاوته حمدوا الله على دخولهم فيه... وكم من رجلٍ دخل في الإسـلام كارهًا، فكان فارسًـا مجاهدًا بعدُ، فهذا أبو سـفيان دخل كارهًـا، فإذا به يثبت يوم الردة ويقول لقريش هو وسـهيل بن عمـرو: «كنتم آخر الناس دخـولًا في الدين، فلا تكونوا أول النـاس خروجًا منه»، فظلّوا على دينهم، وها هو يثبت يوم حنين لما فرّ كثيرٌ من الناس من حول رسـول الله ﷺ ... وها هو عكرمة بن أبي جهل يدخل كارهًا، فيموت يوم يموت شهيدًا في معركة اليرموك، وغيرهم كثير، وفي الحديث: «**عجب ربنا من قومٍ يُسـاقون إلى الجنة بالسلاسـل**» (صحيح الجامع: ٣٩٨٢)، أي: تدخلونهم الإسلام وهم كارهون، فإذا بهم يذوقون حلاوته، فيستقر في قلوبهم.

٤- قتال الكفار:

فإن أبى الكفار كلّ ذلك قوتلت القوة الغاشمة الظالمة التي تمنع الحق بلا سبب، أمّا الشيوخ والنساء الذين لا يقاتلون ولا يخططون في الحرب، وكذلك الأطفال، فلا قتل لهم، ومثلهم المتعبد في صومعته الذي لا همّ له إلا التعبد مع أنّه على باطل إلّا أنّه لا يُقتل، بل الذين يُقاتَلون ليس الغرض قتلهم بل الغرض كسر شوكتهم التي تمنع وصول المسلمين إلى تطبيق شرع الله، فلو تمّ هذا الغرض لم يُقتَل الباقي بل يخير الإمام فيهم إمّا أن يقتلهم لـو خاف مـن تجمّعهم مرّةً ثانيةً على المسـلمين وإمّـا أن يفاديهم بأسرى للمسـلمين وإمّا أن يأسرهم، فإن أسرهم هم والنسـاء والأطفال أُمِرَ المسلمون بمعاملتهم أحسن معاملة بل يسـتحب أن يكسـوهم مما يكسـو ويطعمهم مما يطعم، وهذا أبو ذر لا يُفرّق بينه وبين عبيده لتشـابه ملابسـهم، فإن أبى السيد أن يطعمهم من طعامه أعطاهم جزءًا منه خاصةً لو قام العبد بطبخه أو شرائه، فربما تطلعت نفسه إليه، ثمّ قيل للعبيد: أسلموا وادخلوا في الإسلام، فسنشرع العتق وسنجعل ثوابه أعظم الثواب، ولكن بشرط كون النفس المعتقة

مؤمنة، بل سنجعل معظم الكفارات عتق الرقاب، ثمّ قيل للأمة: قد مُنعتِ من زوجك، فسنجعل للسيد حق جماعك كزوجته تمامًا لئلا تتوق نفسك إليه فربما وقعتِ في الزنا، بل سنقول للسيد: إمّا أن تكفي أمتك كما تكفي زوجتك، وإمّا أن تبيعها لمن يقوم بهذا، ثمّ إذا ولدت الأمة لسيدها ولدًا ذكرًا كان أو أنثى عتقت من بعد وفاته، بل سنقول للسيد: لو أدبتها وأعتقتها وتزوجتها كان لك الأجر مرتين كما صح بذلك الحديث، وسنقول للسيد عمومًا: يحرم عليك أن تكلف العبد من العمل ما لا يطيق، فإن فعلت فساعده في العمل، وإياك أن تضرب وجهه أو تضربه بلا سبب، فإن أصبته من ضربك بعاهةٍ بلا سببٍ منه كان إثمك عظيمًا، ولم تكن لك كفارة إلّا عتقه كما صح بهذا الحديث.

بل سيقال للسيد: إذا طالبك العبد بالكتابة ـ يعني أن يعمل ويدفع لك مالًا تتفقان عليه مقابل عتقه ـ وجب عليك إجابته طالما كان العبد صالحًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ٣٣)، بل ساعده من مالك حتى يكمل مال المكاتبة لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (النور: ٣٣).

❁ فإن قال المريض أو الشيخ الهرم أو الأعمى أو المرأة: نريد الجهاد لننال هذا الشرف؟ قيل لهم: مَنْ نوى منكم ـ بصدقٍ ـ الشهادة والجهاد كُتِبَ له الأجر، ومَنْ أنفق من ماله على أهل المجاهد حتى يرجع كُتِبَ له الأجر، ومَنْ أمدّ منكم الجيش بالسلاح والنفقة كُتِبَ له الأجر، وأيما زوجةٍ راعت زوجها في ولده وبيته وحفظته في نفسها وماله حتى يرجع كُتِبَ له الأجر، فسبحان من هذا شرعه وحُقَّ والله لعبادةٍ كهذه أن يُقال عنها: «**من مات ولم يغْزُ ولم تحدِّثه نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**» (رواه مسلم).

١٢- تأمّلتُ قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ (هود: ١٠٦، ١٠٧)، وتذكرتُ قول البعض: «لو توعدني الله إن عصيته بالحبس في الحمام لكان جديرًا بي أن أخاف، فكيف وقد توعدني بالنار إن عصيت!»،

فإذا بنفسي تشعر بهول الأمر، فطعام أهل النار أسوأ من الغائط والقذر، وشرابهم أقذر من البول، فكيف يُطاق هذا؟ فكيف وهم مع هذا في النار، اللهمّ آجرنا من النار. اللهمّ آجرنا من النار. اللهمّ آجرنا من النار.

ثمّ فيها مصاحبة الكفار والفراعنة والمجرمين، والبعد عن الصالحين والأهل، فما أصعب هذا والله؟ من أجل هوله بكى سفيان في الفاتحة، وبال عمر بن عبد العزيز الدم، وطار النوم من عين مالك بن دينار، ومن قبلهم قام رسولنا ﷺ حتى تشققت قدماه!!

١٣- تأمّلتُ قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر: ٤٧)، وكيف بكى منها السلف، فوجدتُ الأمر كما ظنّوا، فكم من مؤمّلٍ للدرجات العلى، ولعله من أهل النار... كم من عبد صلح حاله أولًا، وهو من أهل سوء الخاتمة، فما أصعب العمى بعد البصر، وأصعب منه الضلال بعد الهدى... فالواجب على الجميع الحذر، واجتناب العجب والغرور، والله المستعان.

١٤- تأمّلتُ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (هود: ١٠٨)، فقلتُ: كم تساوي الدنيا حتى يترك العباد الجنّة من أجلها... حيث النعيم الدائم أبد الآباد... لا موت فيها ولا همّ ولا حزن ولا غمّ... في جنات وأنهار... فيها يُنسى كل همّ... كم سيتعبد العباد في الدنيا حتى يتكاسلوا عن العبادة؟

عجيبٌ والله حال مَنْ يترك نعيم الآخرة من أجل دنيا فانية... أيتركون مجاورة النبيين والشهداء والصالحين من أجل مصاحبتهم لأصدقاء السوء في الدنيا!!

١٥- تأمّلتُ قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ (إبراهيم: ١٨)، فوجدتُ تشابهًا بديعًا بين الرماد، وبين صد الكفار عن سبيل الله من عدة أوجه:

(أ) فكما أنّ الرماد أسود ولا وزن له ولا قيمة له، كذلك صدّ الكفار عن سبيل الله هو عملٌ أسود لا خير فيه ولا وزن له ولا قيمة له.

(ب) وكما أنّ الرماد لا أثر له ولا ثمرة له، فلو وضع على شيء ثمّ أزيل الرماد لم يبق شيء، كذلك صد الكفار عن سبيل الله.

(جـ) وكما أنّ الرياح العاصفة الشديدة تفرق الرماد وتشتته، كذلك رياح التمكين تأتي على أبنية الكفار التي بنوها للصد عن سبيل الله، ولمّا كانت الريح الشديدة لا يُحتَاج إليها إلّا مع الأبنية القوية، فكذلك أبنية الكفار للصد عن سبيل الله، ولو كانت قوية مؤسسة، فإنّ رياح التمكين لابد أن تقتلعها من جذورها.

١٦- تأمّلتُ قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ (النَّازِعَاتِ: ٤٢)، فقلتُ: لِمَ شبّه مجيء الساعة برسو السفينة على الشاطئ؟ فرأيتُ بينهما أوجه تشابه:

(أ) أنّ الراكب للسفينة يعلم أنّه لابد من نزوله منها، كذلك الذي يعيش في الدنيا يعلم أنّه لابد من مجيء وقت يغادر فيه الحياة.

(ب) كذلك الراكب للسفينة يكون عرضةً لأمواجٍ قد تغرقه، كذلك العبد في الحياة عرضة لأمواج الشهوات والشبهات التي قد تهلكه، فليحذر منها كما يحذر الراكب.

(جـ) مستقر السفينة ليس البحر إنّما مآلها إلى الرسو، كذلك مستقر البدن والروح إنّما هو في الآخرة، فليعمل العبد لمستقره.

(د) كلما ثقلت حمولة الركاب في السفينة كلما تعرضت للغرق، كذلك كلما زاد حمل العبد للمعاصي كلما خُشي عليه.

(هـ) أنّ الركاب في السفينة كلّهم على قلب رجل واحد، فلو كَسَرَ أحدهم السفينة وتركوه لغرقوا جميعًا، ولو منعوه لنجوا جميعًا، فكذلك العباد في الدنيا لو تركوا العاصي دون نهي لهلكوا جميعًا، ولو نهوه لنجوا جميعًا.

(و) أنّ الناظر إلى البحر وهو في السفينة ـ إذا كان جاهلًا بالمواني وأماكنها ـ يرى البحر لا نهاية له، ويرى الرسو بعيدًا، كذلك العبد المتعلق بالدنيا إذا كان جاهلًا بحقيقتها فإنه يراها لا نهاية لها بخلاف العالِم بحقيقة الحال.

(ز) إذا اقترب رسو السفينة ـ رأى الجميع الميناء وعرفوا حقيقة الأمر وقرب انتهاء الرحلة. كذلك في آخر الزمان عند نزول عيسى وظهور العلامات الكبرى للساعة يعرف الناس حقيقة الدنيا، فيزهدون فيها ويعرفون حقيقة الآخرة، فيرغبون فيها.

(ح) أنّ السفينة لابد لها من قائد حتى تسير بسلامة كذلك العباد في الدنيا لابد لهم من شرع يقودهم حتى تستقيم حياتهم.

١٧ - قَالَ تَعَالَىٰ مخبرًا عمّا قاله إخوة يوسف لأبيهم لمّا رجعوا من عند يوسف ؛ بعد ما مكنّه الله في الأرض، واشترط عليهم ليعطيهم كيل أخيهم أن يأتوه به، فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (يُوسُفَ:٦٣)، فتأمّل كيف بدأوا بقولهم ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾ مع أنّ يوسف أكرمهم وأوفى لهم الكيل، وأحسن ضيافتهم، ومع ذلك لم يذكروا الخير بل ذكروا أنّه منعهم الكيل، فأمعنتُ النظر، فوجدتُ أنّ هذه أخلاقُ كثيرٍ من الناس، يحسن الله إليهم بأنواع النعم والعطايا والهبات، فإذا جاءهم بلاءٌ يسير لم يذكروا الخير بل ينسونه، ويذكرون هذا البلاء اليسير، وربما كان ذلك راجعًا في أكثر الأحيان إلى ما جُبلت عليه النفوس من محبتها لاستمالة القلوب إليها للعطف والشفقة، ولذا تجد كثيرًا من الناس يكثرون من الشكوى إلى غير الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، فعلى العبد أن يعوِّد لسانه الثناء على الله وحمده بدلًا من الشكوى إلى المخلوقين، ويعوِّد قلبه دوام تذكُّر النعم، وتذكُّر أنواع البلايا التي ابتلى اللهُ بها أُناسًا وعافاه منها بدلًا من نسيان نعم الله وتذكُّر البلاء.

الفصل السادس

تأمّلات في أحاديث نبوية

١- تأمّلتُ قول النبي ﷺ: «**لا حولَ ولا قوة إلاّ بالله كنزٌ من كنوز الجنّة**»، فإذا به سببُ السعادة الحقيقية؛ وذلك أنّ من معانيه، أنّ من الكنوز التي يمتلكها أهل الجنّة إيمانَهم حق الإيمان، وإيقانَهم بتلك الحقيقة، وهي: ألّا حول ولا قوة إلّا بالله، فمن تحقق قلبه ذلك في الدنيا، كان ممتلكًا لكنزٍ من أعظم الكنوز، لا شقاء معه وعناء، وإنّما يوقن العبد بذلك بإكثاره من قول: لا حول ولا قوة إلّا بالله مع التأمّل والتدبر والتفكر لمعانيها، ولذا ورد في أحاديث: «**أكثر من قول لا حول ولا قوة إلاّ بالله**»، وإنّما صار اليقين بها سبب سعادة العبد وراحة قلبه وباله؛ لأنّه إذا أيقن قلبه بذلك لم يحزن على ما فاته من الدنيا، ولم يتعلّق بها، بل يتعلّق قلبه بالله وحده، فإذا به يرضى عن الله وبالله، ويفوِّض أمره كلّه لله، كما أنّ اليقين بذلك يرفع عن النفس مخاصمة الخلق في حقوقها ـ بخلاف حقوق الله ـ وذلك لأنّه يعلم حين يوقن بذلك أنّ ما ناله على أيدي الخلق من ضررٍ إنّما هو بإذن الله، ولا رادّ له إلّا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ (يونس: ١٠٧).

٢- تأمّلتُ قول النبي ﷺ: «**إنّ أول ما يحاسب به النّاس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة**»، فحزنتُ على تقصيري وتقصير إخواني - إلّا من رحم الله - الشديد في حق الصلاة؛ فإنّ قوله ﷺ ذلك يقتضي أن تكون الصلاة هي أولى ما يهتمّ العبد بإتمامه وإحسانه وإتقانه، فأولى ما ينبغي أن يراجع العالم وطالب العلم نفسه فيه هو الصلاة، وكذا العابد، وكذا الداعية، فهل فعلنا ذلك؟!! هل إذا صلّى أحدُنا الفريضة، ووجد أنّه لم يخشع فيها، هل إذا وجد ذلك صلّى من النوافل ما يعوِّض نقص فريضته؟!! وهل يهتمّ أحدنا بإحسان الصلاة كما يهتمّ بحسن فهم مسائل العلم أو كما

يهتمّ بالدعوة؟!! وهل هي عند أحدنا أهمّ شيء في الدين بعد الشهادتين كما هي في الشرع؟!! ففي الحديث: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله وإقام الصلاة....**»، وهل يهتمّ دعاتنا أول ما يهتمون ـ بعد التوحيد ـ بإصلاح صلاة الناس، وحثهم على إقامتها كما أمر الله، فقد وجّه النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن فقال: «**إنّك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك، فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات...**»، والله – لو أقام النّاس الصلاة – كما أمر الله ـ لصلح حالهم ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

٣- تأمّلتُ قول النبي ﷺ: «**مَنْ أراد أن يعلم ما لهُ عند الله، فلينظر ما لله عنده**»(صحيح الجامع)، وتفكرتُ فيه، فإذا هو مقياسٌ يحاسب العبدُ نفسَه على أساسه، فهل الآخرةُ هي نيته وأكبر همّه أم الدنيا؟!! وهل إذا أصبح كان شاغله الشاغل هو الصلاة والعبادة والذكر والقيام بحق العبودية أم شاغله هو مكاسب الدنيا وحظوظها؟!! وهل إذا أخذ مضطجعه كان همّ الآخرة هو الذي يهجم على قلبه، فيتفكر في تقصيره، ويعزم على الازدياد من الخير أم أنّ همّ الدنيا هو الذي يهجم على قلبه حتى أنّه ربما رأى في منامه ما يتعلق بها؟!! وهل إتقان العبادات والإحسان فيها هو أكبر ما يشغله أم أنّ أداءه للعبادات صار مجرد حركات والتزامات ظاهرية دون خشوعٍ وإخباتٍ؟!! وهل يسعى في زيادة إيمانه كما يسعى في زيادة ماله وتجارته؟!!

٤- تأمّلتُ قوله ﷺ: «**إنّ المعونةَ تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة، وإنّ الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة**»(صحيح الجامع: ١٩٥٢)، فوجدتُ فيه سببًا عظيمًا لراحة قلب المؤمن؛ وذلك أنّ الشيطان ربما خوّف العبد من البلاء، الذي قد يترتب على التزامه بالشرع، خاصةً وأنّه كلّما ازداد إيمانه كلما ازداد بلاؤه، ففي الحديث: «**يُبتلى المرء**

على قدر دينه»، كما وجدت فيه تفسيرًا لإشكالٍ عظيم كان يراودني عند قراءة ما ورد في السُّنّة والسير عن ابتلاءات عظيمة لا يكاد يحتمل القلب الصبر عليها، وكنتُ أقول في نفسي: كيف صبر هؤلاء؟ وهل لو وقع بي هذا البلاء سأصبر مثلهم؟!! فوجدتُ في هذا الحديث جواب هذا الإشكال، وهو: أنّ هذا الصبر العظيم ما كان إلّا بالله الذي يؤيد عبده المؤمن ويصبِّره ويعينه ويثبته، فالحمد لله له الفضل والمنّة، وأدركتُ أيضًا ـ لمّا علمتُ بهذا الحديث ـ أنّ اللازم للعبد أن يزيد من الأعمال الصالحة التي تقوِّي صلته بربه حتى تكون معونة الله له أكمل وأعظم، ولا يخف إلّا من تقصيره وذنوبه هو، لا من البلاء، ولا ممّن يجري على أيديهم البلاء، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

٥- قرأتُ للشيخ محمد صالح المنجد حَفِظَهُ اللهُ رسالة لطيفة بعنوان «المؤمن بين النحلة والنخلة» يتكلم فيها عن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثل المؤمن مثل النخلة، ما أخذت منها من شيءٍ نفعك**» (صحيح الجامع: ٥٨٤٨)، وقوله: «**مثل المؤمن مثل النحلة، إن أكلَتْ أكلت طيبًا، وإن وضعَتْ وضعت طيبًا، وإن وقعَتْ على عودٍ نخرٍ لم تكسره**» (صحيح الجامع: ٥٨٤٦)، فقام حَفِظَهُ اللهُ بذكر أوجه التشابه بين المؤمن وبين النحلة والنخلة، وذكر أنّ النحلة لا تأكل بمرادها وبشهوةٍ منها بمقدار ما تأكل بأمر ربها لها ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل:٦٨،٦٩)، وكذلك المؤمن لا يأكل إلّا طيبًا ولو صبر على مرّ الحلال، وكما تدافع النحلة عن عرينها وعن عريشها وخليتها أشدّ المدافعة، كذلك المؤمن يدافع عن عرين الدين ويلسع كلّ من أراد هدم الإسلام بشبهة، وقال ابن الأثير: وجه المشابهة بين المؤمن والنحلة: حذق النحل وفطنته، وقلّة أذاه، ومنفعته، وقنوعه، وسعيه في الليل، وتنزهه

عن الأقذار، وطيب أكله، وأنّه لا يأكل من كسب غيره، ونحوله، وطاعته لأميره، وأمّا النخلة، فإنّ أكلها حلوٌ مفيدٌ، فكذلك عمل المؤمن الصالح له حلاوة، والنخلة يُستفاد منها بعد قطعها ممّا يجعل منها من الحطب وممّا يؤكل من جوفها من الجمّار، ويستعمل سعفها فيكون ظلًا ظليلًا، فكذلك المؤمن يستفاد منه بعد موته بالعلم الذي يتركه، والخير الذي يدعه، والأولاد الصالحين الذين يربيهم، ويستفاد من سيرته الحسنة بعد موته، ويُستفاد من ماله الحلال لورثته من بعده، كما أنّ بركة النخلة موجودة في جميع أجزائها مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس يؤكل ثمرها، فيؤكل البلح والرطب والتمر والخشف اليابس، فكل ثمرها في جميع الأوقات والأماكن تخزن وينتفع بها، وكذلك المؤمن ينتفع بأقواله وأفعاله وهديه وسيرته وسمته ومظهره، وكما أنّ فروع النخلة عالية في السماء تؤتي أكلها كل حينٍ بإذن ربها، كذلك المؤمن عالٍ بمنهجه ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه، وكما أنّ النخلة ثابتة في الأرض وجذورها ممتدة ومتشعبة يصعب قلاعها، فهكذا المؤمن فإنه ثابت، دينه ثابتٌ في قلبه يصعب قلاعه والقضاء عليه، ويكون عمله الصالح مورقًا عن هذا الأصل الثابت، وكما أنّ النخلة ينتفع بجميع أجزائها بالتمر والسعف والجمار، وحتى النوى فهو علفٌ للدواب، والليف يصنع منه الحبال، فكذلك المؤمن يُستفاد من مشيه وملبسه وتصرفاته وأحواله، يُستفاد منه في جميع الأوضاع، وفي جميع الأشياء، يُستفاد من لسانه ويديه وتفكيره.

تنبيه: لحديث تشبيه المؤمن بالنخلة روايات كثيرة؛ منها غير ما ذكرنا: «**إنّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم**»، وفي رواية أخرى: «**إنّ من الشجر لما بركته كبركة المسلم**»، وفي ثالثة: «**من يخبرني عن شجرة مثل المؤمن، أصلها ثابت وفرعها في السماء**».

٦- تأمّلتُ قول النبي ﷺ: «**المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم**»، وتذكرتُ قول الجنيد لمّا أخبره أحدُ تلامذته أنّه لم يبق ـ لقلبه تعلّق إلّا بشهوةٍ واحدةٍ من شهوات النفس المباحة، وقد تخلّص بفضل الله ـ من التعلّق بغيرها، فقال له: المكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم، يقصد: أنّه لابد من تخلّص القلب من التعلّق بالشهوات، نعم ـ يتناول من الشهوات ما أباحه ولكن دون إسراف، ودون تعلّق القلب بها، ولكنّ هذه الشهوات قد جبلت النفوس على محبتها، كما أنّها إذا أُكرهت على تركها بالكلية، أو شعرت بالحرمان منها لم تزل تنازع صاحبها إليها، فاللازم إذًا مداراتها، والرفق بها، وذلك ـ كما بينتُ في كتاب الكسل ـ بتنظيم تناولها للشهوات المباحة بحيث تتناولها في أوقات محدّدة، وعند الحاجة إليها، وبعيدًا قدر المستطاع عن أوقات التعبد حتى لا يفسد قلبه مع ملازمة تذكر الفقراء، وذكر السيئات حتى لا يقسو القلب بها.

٧- تأمّلتُ قول النبي ﷺ: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى**»، وقوله: «**الإيمان: الصبر والسماحة**» (صحيح الجامع: ٣٤٩٥)، وقوله: «**إنّ خيرَ عباد الله من هذه الأمّة الموفُّون المطيِّبون**» (السلسلة الصحيحة: ٢٨٤٨)، وقلتُ لنفسي: لِمَ كانت لسماحة النفس هذه المنزلة العظيمة؟ فوجدتُ أنّ سماحة نفس العبد وطيب نفسه عند البيع والشراء، وعند القضاء والاقتضاء، وسماحة نفسه في تعامله مع الناس عمومًا تسبب طمأنينةً عجيبةً للقلب، وإخباتًا وخشوعًا، والتفاضل عند الله بما في القلوب، بخلاف سوء الخلق والمداقة في التعامل مع الخلق، فإنّه يكدِّر القلب ويفسد العمل، ففي الحديث: «**وإنّ سوء الخُلُق ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسلَ**» (صحيح الجامع)، والمقصود من سماحة النفس: الغضُّ عن حقوق النفس ـ مالم يعارض ذلك الشرع ـ والتغافل عن أخطاء الآخرين، والجود والإكرام عن رضًا وطيبِ نفسٍ، وألّا يحمل العبد في قلبه حقدًا ولا حسدًا ولا غِلاًّ، وإنما يصل العبد

إلى هذه المنزلة العظيمة التي قال عنها سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فُصِّلَتْ : ٣٤،٣٥)، بتكلّف هذه الأخلاق ـ إن لم يكن متصفًا بها ـ حتى تصير له أخلاقًا.

٨- تأمّلتُ قول النبي ﷺ : «**من استطاع منكم أن يكون له خِبْءٌ من عملٍ صالح فليفعل**» (صحيح الجامع)، أمعنتُ النظر فيه، فوجدتُ أنّ العبد إذا التزم ذلك الأمر النبوي حصّل فوائد جمّة، منها:

(أ) أنّ النفس تتعود الإخلاص، فينعكس ذلك على عملها كلِّها، وليس في العمل الذي حرصت على إخفائه فقط.

(ب) أنّ ذلك يعوِّد النفس على دوام مراقبة الأعمال والمحافظة عليها من العجب والرياء والمنّ وغيرها من المفسدات؛ لأنّ المقصود هو دوام إخفاء هذا العمل، وليس مجرد إخفائه عند عمله أول مرة فقط، فمداومة النفس على إخفاء العمل الصالح يربي فيها ملكة مراقبة الأعمال الصالحة كلها سواءٌ هذا العمل أو غيره.

(جـ) أنّ ذلك يورث القلب حلاوةً عجيبةً ولذةً فريدة يذوقها من داوم على إخفاء عمله الصالح، كما يورث القلب الإخبات والخشوع والمحبة لله ورسوله ﷺ .

(د) أنّ ذلك يعوّد النفس على دوام تذكر الآخرة؛ فإنّ مداومة النفس على إخفاء العمل الصالح لا يكون إلّا من نفسٍ تبتغي بذلك الأجر والمغفرة، فإنّه إذًا إخفاءُ عبدٍ قد أكثر من تذكره لسيئاته، فعلم تقصير نفسه الشديد، فإذا به يؤمِّل في رحمة ربه، ويرجو منه أن يجعل من ذلك العمل الصالح الذي خبأه، أن يجعله سببًا لمغفرته له، وأمّا من أُعجب بعمله، أو ظنّ أنّه سيبلغ به الدرجات العُلى، فإنّه قد لا يستفيد من إخفائه لعمله.

(هـ) أنّ ذلك سببٌ لدوام اجتهاد العبد؛ لأنه إذا عمل العمل، فأخفاه مدّةً ثمّ اطلع الناس عليه، فإنّه سيجتهد في عملٍ آخر يخفيه عن الناس، ليكون له خبْءٌ من عملٍ صالح، فإذا أخفاه مدّةً، واطّلع الناس عليه بعدُ، اجتهد في عملٍ ثالث، وهكذا، ومن كان هذا حاله استفاد كذلك نفي العجب عن قلبه، والله أعلم.

(و) أنّه سببٌ لشغل بال العبد بالعمل الصالح على الدوام؛ لأنّه يحثه على البحث عن أعمالٍ صالحة يمكن إخفاؤها بحيث لا يعلم بها سوى ربه عزّ وجلّ، كما أنّه يحثه على البحث عن أخفى الأعمال الصالحة التي هي أبعد ما يكون عن اطّلاع الخلق عليها.

٩- تأمّلتُ قوله ﷺ: «**ما من عبدٍ مؤمنٍ إلاّ وله ذنبٌ يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يفارقه، حتى يفارق الدنيا، إنّ المؤمن خُلق مُفتَّنًا توّابًا، نسيًّا إذا ذُكِّر ذَكَر**» (صحيح الجامع: ٥٧٣٥)، فوجدتُ فيه سببًا عظيمًا من أسباب هداية العبد؛ وذلك أنّ العبد إذا رأى نفسه أنّه كلّما تاب زلّ مرّةً ثانيةً، ربما يورثه ذلك اليأس من الهداية، فينقطع عن السعي في أسبابها، ولكن إذا علم أنّه لابد من الزلل والخطأ ـ والناس متفاوتون في ذلك تفاوتًا عظيمًا ـ فإنّه لا ييأس ولا ينقطع بل يتوب ويواصل سعيه في طريق الهداية، ولذا قال ﷺ: «**مَنْ أحبَّ أن تسره صحيفتُه، فليكثر فيها من الاستغفار**» (صحيح الجامع)، وليس المقصود هو الاستغفار المجرد باللسان بل لابد من ندم القلب، وعزمه على عدم العودة، فمن فعل ذلك استقام قلبه على طريق الهداية، وإذا كسل أو فتر لم يلبث أن يعود مرّةً ثانيةً، بخلاف اليائس، فعلى سالك طريق الهداية ألّا يذهل عن هذين الأمرين:

(أ) ضرورة وجود الزلل.

(ب) ضرورة لزوم الاستغفار الدائم والتوبة الصادقة حتى لا ينقطع عن الطريق.

١٠- تأمّلتُ قول النبي ﷺ لأحد أصحابه: «**أوصيك أن تستحي من الله عزّ وجلّ كما تستحي رجلًا من صالحي قومك**» (السلسلة الصحيحة: ٧٤١)، فإذا به من أعظم أسباب الوصول إلى درجة الإحسان، وهي أن يعبد المرء ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنّ الله يراه، كما فسّرها النبي ﷺ؛ وذلك لأنّ المرء إذا استحضر مراقبة الله ومعيته، واستحضر كأنّه ماثلٌ بين يدي الله، فَتَرك ما يتركه من المعاصي والدنايا وخوارم المروءة التي يتركها إذا كان مجالسًا لأهل الصلاح، إذا فعل ذلك، فإنّه سيصل إلى درجة الإحسان في طاعة ربه، كما أنّ ذلك يورث الحياء من الله الذي هو سبب كل خيرٍ للقلب، وذلك لما يحدثه في القلب من رقةٍ وخشوعٍ وإخباتٍ، كما أنّه من أكبر أسباب إزالة الرياء والعجب من قلب العبد، كما أنّه من أكبر أسباب زهد القلب في الدنيا.

١١- تأمّلتُ قول النبي ﷺ: «**من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يَغفر لا يُغفر له، ومن لا يتب لا يُتب عليه**» (السلسلة الصحيحة: ٧٣٩)، فوجدتُ فيه كنوزًا إيمانية، منها: أنّ فيه بيان سبب الأخلاق الحسنة، وهو استحضار حاجة المرء إلى رحمة الله ومغفرته وتوبته، فإذا به يعامل الخلق كما يحب أن يعامله الله عزّ وجلّ.

ومنها: أنّه يعوّد العبد دوام تذكر الآخرة، ودوام تذكر الافتقار إلى الله، فيصير حاله كحال أبي داود ـ صاحب السنن ـ لمّا رأى من عطس وحمد الله على شاطئ النهر، فركب إليه بأجرة ليشمته، وقال: لعلّه أن يكون مستجاب الدعوة، وكحال معروف الكرخي لمّا مرّ بسقّاء ـ يسقي الماء ـ ويقول: غفر اللهُ لمن شرب من مائي، فشرب منه وقال: لعلّه أن يكون مستجاب الدعوة، وكحال الذي كان يداين الناس ويقول لغلمانه الذين يجمعون له المال: تجاوزوا عن المعسر عسى الله أن يتجاوز عنّا، فغفر الله له، وأمّا من لا يشعر بحاجته إلى رحمة الله ومغفرته وتوبته، فهذا أحمقٌ مغرور، متكبرٌ هالك.

۞ كما أنّه يحث العبد على مراجعة أخلاقه مع العباد، ليتوب إلى الله من سوء معاملته لهم؛ فإنّ ذلك قد يكون سببًا لمعاملة الله له بالمثل، فيهلك؛ والعياذ بالله.

١٢- تأمّلتُ قول النبي ﷺ لأحد أصحابه لمّا سأله: يا رسول الله! كم نعفو عن الخادم؟ فقال: «**اعفُوا عنه في كلّ يومٍ سبعين مرّةً**» (السلسلة الصحيحة: ٤٨٨)، فقلتُ لنفسي: أيّ سماحةٍ هذه التي يدعو إليها الإسلام؟!! وأيّ صبرٍ وحلمٍ هذين اللذين يدعو إليهما الإسلام؟!! ثمّ قلتُ لنفسي: إذا كان هذا مع الخادم، فكيف بالولد أو الزوجة؟!! فهما أولى وأولى ما لم يكن في ذلك معارضة للشرع، وفي الحديث: «**إنّي أحرّجُ حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**» (السلسلة الصحيحة: ١٠١٥).

١٣- تأمّلتُ قول النبي ﷺ لمّا مرّ مع أصحابه على مقبور: «**ركعتان خفيفتان ممّا تحقرون وتنفلون يزيدهما هذا في عمله أحبُّ إليه من بقية دنياكم**» (السلسلة الصحيحة:١٣٨٨)، وكيف أنّ أهل المقابر يتمنى أحدُهم صلاة ركعتين خفيفتين فقط، وهما أحبُّ إليه من الدنيا بأسرها، بينما نحن ـ معاشر الأحياء ـ نضيع أوقاتنا سُدىً بلا فائدة!! مع عظيم الخسارة بتضييعها، ومن أراد أن يوقن بذلك، فليقارن زمن الدنيا بزمن الآخرة الذي لا نهاية له، حتى يستبين حقيقة الأمر، وهي أنّ الثانية الواحدة في الدنيا يقابلها ملايين السنوات في الآخرة، وقد فقه السلف ذلك، فكانوا أحرص على أوقاتهم منّا على أموالنا، وفي الحديث: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**»، وقوله: «**مغبون**» أي يبيعون هاتين النعمتين بثمنٍ بخسٍ كمن يبيع سلعةً نفسيةً يمتلكها بثمنٍ زهيدٍ، فكذلك أكثر الناس يضيعون هاتين النعمتين فيما لا فائدة فيه فضلًا عمّن يضيعهما في المعاصي، مع أنّهما من أغلى وأنفس النعم، وكان بإمكان العبد ـ لو استغلهما في طاعة الله ـ أن يربح فيهما أعظم الربح.

١٤- قرأتُ لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا بديعًا فيما يتعلق بحديث: «**إنّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ أو صورة**»، فأحببتُ نقله للفائدة، قال: سمعتُ شيخ الإسلام يقول: إذا كانت الكلاب والصورة تصدُّ الملائكة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله، ومحبته، وحلاوة ذكره، والأنس بقربه في قلبٍ ممتلئٍ بكلاب الشهوات وصورها، فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة»ا.هـ.

obeikandl.com

الفصل السابع
تأمّلات في معاني بعض الأسماء والصفات

حكمة الله وحسن اختياره لعبده:

(أ) تأمّلتُ في نفسي حال أخ فاضل رسب سنوات دراسيةً ما فحزنتْ لذلك نفسه جدًا، ولكنّه صادف أن تخرّج في عامٍ ما فأعفي فيه من الجيش، ولو لم يرسب وكان قد تخرج مع زملائه لدخل الجيش أو على الأقل لحلق لحيته في الكشف الطبي، فقلتُ: سبحان الحكيم الذي لا يقدِّر على عبده المؤمن إلّا الخير، ثمّ قلتُ في نفسي: تُرى لو علم هذا الأخ الغيب ماذا كان سيختار؟ فإذا بنفسي تتذكر قول بعض الصالحين: «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم ما قدَّره الله».

(ب) بلغني عن أخٍ فاضل أنّه نام عن امتحان تحسين الثانوية العامة، فلم يدخل مادةً ما فقلّ مجموعه، فدخل كلية غير التي كان يستحقها، فحزن لذلك؛ إذ قد عُرِف بين زملائه بالتفوق، ثمّ مرّت الأيام، فإذا به في الكلية التي سخطها، إذا به يتعرف على إخوةٍ أفاضل يلتزم معهم، ولولا أن قدّر الله عليه دخول هذه الكلية ما التزم، فقلتُ في نفسي: سبحان الحكيم العظيم!!

(جـ) تأمّلتُ حال بعض الإخوة ممّن مُنع من الخطابة وإلقاء الدروس، فحزن لذلك، ولكنّه تفرّغ لكتابة الكتب وما كان ليكتبها لولا تفرغه هذا، فقلتُ: سبحان الله الحكيم!! ثمّ تأمّلتُ حال هذا الأخ، فإذا به نشأ في بلدٍ ما ثمّ انتقل إلى بلدٍ أخرى والتزم فيها والتقى فيها بطلبة العلم، ثمّ تأمّلتُ في سيرته أكثر فوجدتُها واللهِ كلّها تنقلات من مكانٍ إلى مكانٍ ومن عملٍ إلى عملٍ ومن حالٍ إلى حالٍ، وما انتقل إلى حال إلا ووجد فيه ما يعينه أكثر على طلب العلم، فسبحان الله الحكيم!! ما من حركةٍ وسكنةٍ لكل مخلوق يقدّرها الله إلّا لحكمة بل لحكمٍ عظيمة نطّلع على بعضها وما يخفى علينا أكثر، فسبحان الحكيم الذي بهرت حكمته العقول!! وأيما واحدٍ اطّلع في نفسه على هذا المعنى لوجد الكثير والكثير.

obeikandl.com

سعة علم الله:

تأمّلتُ ما في باطني من دقائق وخفايا وعيوب ظاهرة وباطنة وخواطر ووساوس وإرادات، فوجدتُ كمًّا هائلًا، فقلتُ: سبحان مَنْ علم هذه فيّ قبل خلقي بل وعلم ما في كل مخلوق كذلك، فسبحان العليم الذي لا ينسى ولا يغفل! وإذا كان الكمبيوتر المخلوق يسع كمًّا هائلًا من المعلومات، فكيف بعلم الخالق.. ولكن الكمبيوتر وإن وسع كمًّا هائلًا إلّا أنّ له سعةً معينةً على حسب نوع الجهاز لا يستطيع حفظ أيّ معلومةٍ زائدةٍ على هذه السعة، أمّا ربنا فعلمه لا نهاية له ولا حدود له، ثمّ جال خاطري في تفاصيل حياتي من نشأتي ودراستي وزواجي وما أفعله في اليوم وفي الأسبوع وفي العام بل في الثانية من أعمال ـ كل ذلك في علم الله لا يغيب عنه شيء، وكذلك كل مخلوق، فقلتُ: سبحان الله أيّ علمٍ علمه وأي خبرةٍ خبرته..؟ سبحانه هو العليم الخبير!

ضرورة محبة الله عَزَّوَجَلَّ:

تأمّلتُ حال الناس فوجدتُهم ـ أي: الصالحين منهم ـ قد شغفوا بمحبة الألباني والعثيمين وابن باز؛ وذلك لعلمهم وفعلهم للخير وصلاحهم ـ رحمة الله عليهم ـ فقلتُ: وما علم هؤلاء في علم الله، وما فعلهم للخير في جنب فعل الله؟ أو ليس الله بأولى بالحب منهم؟ نعم لستُ أنكر محبتهم، فأنا من المحبين لهم جدًا، ولكنّه تنبيهٌ على لزوم محبة الله أكثر من أيّ أحدٍ؛ إذ ما من خيرٍ يُحَبُّ بسببه مخلوق إلّا وفي أفعال الله وصفاته وأسمائه أضعاف أضعافه بل كلّ خيرٍ في المخلوق هو هبة الله وفضله عليه.

سعة كرم الله ومغفرته:

(أ) تأمّلتُ حديث الرجل الذي كان يداين الناس، ويقول لغلمانه: تجاوزوا عن المعسر لعل الله أن يتجاوز عنّا، وكيف أنّ الله غفر له لعمله هذا ولم تكن له حسنة سواه، فقلتُ: سبحان الغفار الغفور! ثمّ جلتُ بخاطري في حديث عتقاء الرحمن الذين يدخلهم الله الجنّة بغير عملٍ

عملـوه ولا خـيرٍ قدّموه، فأدركتُ أنّ الله وحده هو الغفور الرحيم، فالواحد منّا يغفر لمن أخطأ في حقه مرةً ومرتين وثلاثًا، أمّا أن يغفر لمن عاش حياته كلّها يخطأ في حقه بل ويغفر لآلافٍ ممّن عاشـوا حياتهم كلها في معصيته.. فهذا لا يكون والله إلّا من الغفور التواب، ثمّ إنّ المخلوق لو غفر لأخيه فإنّما يبغي بذلك شـيئًا؛ إمّا مدح الناس وإمّا رضا الله وثوابه، فمغفرته لغرضٍ وأمّا الله فلا ينتفع بمغفرته لنا شيئًا، فسبحان الكريم!

(ب) تأمّلـتُ حال الكرماء مـن البشر، فوجدتُ الناس يعجبـون بكرمهم ويحبونهم من أجلـه، فقلتُ في نفسي: ومـا كرمهم في جنب كرم الله؟ ينفق ملايين الملايين ويرزق كل مخلوق، حتى الكافر، حتى من يسبه ويحارب أولياءه.. ما بخل قط ولا منع إلا وفي منعه عطاء من جهة أخرى بل من جهات.. بل زاد كرمه حتى شـمل المنّ والتفضل بالأخلاق والعلوم والكمالات المعنويـة، فسـبحان الجـواد يُعلِّمُ هذا، ويُفهِّم هـذا، ويمنّ بالأخلاق الفاضلـة على هذا، فما من مخلوقٍ إلّا وكرم الله يشمله.

سعة حلم الله:

(أ) تأمّلتُ حال البشر فوجدتُ أحدهم يغضب إذا سـبّه غيره، وكلما كان حال السـابّ أنقص وحال المشـتوم أكمل كلما زاد الغضب وكلما زاد سـوء السّـب، فقلتُ: سـبحان الحليم الصبور! هو الله العلي الأعلى؛ يسبه المخلوق الذي لا يساوي جناح بعوضة بل ويسبّه فيما يتعلق بحقـوق الألوهيـة والربوبيـة، ومع ذلك يصبر ربنـا ويحلم، وربما هداه بعدُ إلى الإيمان وسـامحه وأحبّه كأنّ شيئًا لم يكن، فلا إله إلا الله الحليم الصبور.

(ب) ابتليتُ ببعض الذنوب، فلمّا تبتُ منها، تفكرتُ في حلم الله، فلو شـاء لقبضني قبل التوبة منها، بل لو شـاء لقبضني عليها، ولكنّه برحمته أمهلني حتى تبتُ منها، ثمّ جال خاطري في سعة كرمه حيث سترها عليّ، ولو شاء لأطلع الخلق على ذلك، فتذكرتُ قول بعض السلف: «أصبحـتُ وبنـا من نعم الله ما لا يُحصى مـع كثير ما يُعصَى، فلا ندري علامَ نشـكر؟ على جميل

ما نشر أوْ على قبيح ما ستر؟!»، وقول آخر: «أصبحتُ بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوبٍ سترها الله فلا يستطيع أن يعيِّرني بها أحد، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي»، فلمّا استحضرت نفسي ذلك أحسستُ بإخبات القلب وسكينته، فقلتُ لنفسي: ينبغي أن تدومي على ذلك العمل حتى يرق قلبك، أعني استحضار ستر الله وحلمه عن عبده، وعدم مؤاخذته بالذنب أو فضحه بسببه.

هداية الله لخلقه:

تأمّلتُ هداية الله للمخلوقات، فهذا النحل ينتج العسل في نظام بديع، وهذا النمل يخزن قوته، وهذه الطيور تضع الحَبَّ في أفواه صغارها بل وأعجب من ذلك هدايته سبحانه لهذه المخلوقات الهداية المعنوية والأخلاقية، فقد روى البخاري معلقًا مجزومًا به عن أحد التابعين أنّه رأى قردةً مجتمعين على قردٍ زانٍ يرجمونه حتى مات، فقلتُ: سبحان الهادي! وحكى أحد الصالحين أنّه وضع قطعةً من السكر فرأتها نملة فرجعت إلى زميلاتها فجاء وراءها جيشٌ من النمل فلمّا رأى النمل عن بُعد أخّر قطعة السكر، فأخذت النملة والنمل معها يبحثن عن قطعة السكر حتى يأسن منها فرجعن، فوضع الرجلُ قطعة السكر ثانيةً، فجاءت النملة فرأتها فرجعت إلى أخواتها ثانيةً فجئن معها، فلمّا رأى الرجل النمل عن بُعد أخفى القطعة ثانيةً، فأخذ النمل والنملة يبحثن عن القطعة فلم يجدنها، فاجتمع النمل على النملة يضربنها حتى قطعنها إربًا لكذبها، فسبحان الهادي!

أنوار الشريعة المحمدية:

(أ) تأمّلتُ شرع الله وما فيه من أحكام عظيمة، وكيف أطلعنا العلم الحديث على حكمٍ عظيمة وفوائد جمة في بعضها، وما يخفى علينا أكثر، ورأيت هذه الأحكام تُصلِح النفوس، فهذه أحكام الجنايات والحدود تربي أناسًا يفعلون الجريمة دون أن يراهم أحد، ثمّ إذا بهم يأتون ويعترفون بما فعلوا، وما اعتراف ماعز والغامدية بزناهما ببعيد، بينما في

القوانين الأخرى يتنصل المجرم من جريمته مع رؤية الناس له، ويذهب إلى المحامي ليقول له: سأخرجك من القضية كما يخرج الشعر من العجين، فقلتُ: سبحان مَنْ أدبت أحكامُه القلوبَ والأنفسَ قبل تعذيبها للبدن.. وما أجمل ما قاله الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «إذا طلعت الشمس أطفأ الناس مصابيحهم اكتفاء بنور الشمس، فكذلك إذا حكم الله بحكم، فإنّ عليه النور، فليطفأ كل واحد عقله ولا يعترض».

(ب) تأمّلتُ آيات سورة النور، وكيف نهى الله عن الزنا، وأمر بغض البصر، وبالاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين، وأمر بالحجاب والعفة، وختم هذه التشريعات بآية النور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥)، كأنّه سبحانه يقول: إنّ النور كل النور في منهج الله، فالله هو نور السماوات والأرض وأحكامه كلها نور، فقلتُ في نفسي: فهلا أضاء وأنار وجه الطائع حسيًا كما تضيء القلوب بأنوار الإيمان؟ ثمّ دارت الأيام حتى رأيت ثلاثةً من الصالحين على وجوههم النور كالمصباح والله، ولستُ أعني نضارة الإيمان وحلاوة اليقين، فقد رأيتُها على وجوه كثيرٍ من الصالحين، ولكنّي أقصد أضواء حسية كضوء المصباح تمامًا رأيتها على وجوه هؤلاء الثلاثة، فسبحان نور السماوات والأرض الذي ينوِّر قلوب المؤمنين ووجوههم في الدنيا قبل الآخرة!

غنى الله عن عباده:

تأمّلتُ إغواء الله لكثير من خلقه ولو شاء لهداهم، فقلتُ: سبحان الغني عن عباده وعن عبادتهم وطاعتهم، فمن أطاع الله فإنّما ينفع نفسه، ومن عصى فإنّه لا يضر إلّا نفسه ولا يضر الله شيئًا، وتأمّل قول إبليس فيما يحكيه عنه ربُّ العزة قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٢)، أي لأنّك عزيز غني عن عبادك سأضلّهم، ولولا ذلك ما استطعتُ أن أضلّ أحدًا فعجبًا لأناسٍ يمنّون على ربهم بطاعتهم بل تجرأ البعض لجهله، وكأنّه يهدد الله، فقال: لئن رسبت في الامتحان لأتركنّ الصلاة، وقال آخرُ عند بلاءٍ: «لِمَ

يـارب وأنا أطيعك»، وكأنّه يعترض على الله، ويمنّ عليه، وما علم هؤلاء غنى الله عنهم وعن عبادتهم.

سبحان القيوم!

تأمّلتُ تقلب قلبي بين الغفلة والذكر، وبين النشاط والفتور، فوجدتُه يتقلب تقلبًا عجيبًا بل ورأيتُ أناسًـا من حولي كذلك، فقلتُ: سـبحان القيوم الذي ما من قيامٍ لنفسٍ ولا قعود ولا حركة ولا سكنة بها إلّا به، فهو الذي مَنَّ بالطاعة على مَنْ أراد، وأزاغ عنها مَـنْ أراد، واسـتغنى عن كل أحد، واحتاج إليـه كل أحد، فلا حول ولا قوة إلّا بالله، ولا خـير في النفس إلّا بـالله، ولا شر يُدفع عنها إلّا بالله، وفي الحديث: «**القلوب بين إصبعين مـن أصابـع الرحمن يقلبها كيف يشـاء**»، وفي آخـر: «**لقلب ابن آدم اشـدّ انقلابًا من القِدْر إذا استجمعت غليانًا**» (صحيح الجامع).

سبحان الودود!

تأمّلـتُ تـودد الله إلى عبـاده في القـرآن فتارةً يخبرهـم بنعمه عليهم وفضلـه، وتارةً يخبرهـم بجميل صفاته من رحـمةٍ وتوبةٍ ومغفرةٍ ومسـامحةٍ لهـم، وتارةً يخبرهم بمـا أعدّ لهـم في الجنّـة من نعيمٍ وإكـرامٍ، وتارةً يخبرهم بأنّه يحبهم وبأنّه سـخر لهـم الكون وجعل بني آدم سادة للمخلوقات الأرضية ـ كل ذلك ليحبوه ويعبدوه، فقلتُ: سبحان الودود يتودد إلى عباده، وهو الغني عنهم، وهم الفقراء إليه!

سبحان المجيب الشافي!

تأمّلتُ قصة رجلٍ ابتلي ولده بمرض استعصى على الأطباء علاجه حتى يأس الأب من شفاء ابنه وأيقن بموته، فبلغه حديث النبي ﷺ الصحيح: «**داووا مرضاكم بالصدقة**»، فتصدق على فقيرٍ وكساه، ثمّ دعا ربه بشفاء ابنه، فشفي ابنه، فقلتُ: سبحان المجيب الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ثمّ تأمّلتُ قصة رجل آخر أصيب

بمرض استعصى على الأطباء، فبلغه حديث: «**ماء زمزم لما شرب له**»، فشربه فشفاه الله، فقلتُ: سبحان الكريم! وكأنّ الله يريد أَنْ يُعلِم عباده أنّ الأسباب مهما تقدمت وأَنّ الطب مهما تطور إلّا أنّه لابد من بقاء الاحتياج إلى التوكل على الله والاعتماد عليه، فبيده الأسباب وهو ربها، وهو خالق كلّ شيء، والقادر على كل شيء.

عناية الحفيظ سبحانه بأوليائه:

تأمّلتُ قصة سفينة مولى رسول الله ﷺ حين انكسرت به السفينة في البحر إلى جزيرة، فوجد بها أسدًا، فقال للأسد: أنا سفينة مولى رسول الله، فدلني على الطريق فدلّه الأسد، وهي قصة صحيحة السند، فلم أدرِ مِمَّ أعجب؟ أَمِنْ ثقة سفينة وتوكله أم مِنْ حفظ الله له؟ ثمّ جلتُ بخاطري فتذكرتُ ما روي عن إبراهيم بن أدهم أنّه نام تحت شجرة، فكانت الحية تذب الذباب عنه حتى استيقظ، فقلتُ: سبحان الحفيظ! ثمّ قلتُ لنفسي: هذا حال السلف، فهلّا وجد في عصرنا ما يشابهه تقويةً لقلوبنا؟ فبلغني عن ثقةٍ أنّه ركب في قطار كفر الدوار في مصر الذي تحطم وكان الوقت بعد العصر (أي: وقت أذكار المساء)، فكان هو على كرسيه يقول الأذكار بينما كان بجواره رجال يتكلمون ويضحكون مع نساءٍ، فيحكي صاحب القصة، ويقول: فوجدتُ نفسي عند حادث القطار وقعتُ على سطح دكان، ولم أُصَبْ بشيء بينما هلك وتمزق الشباب الذين كانوا يتحدثون مع الفتيات، وهذه قصة حقيقية صاحبها صديق لي في الكلية ـ فقلتُ: سبحان الحفيظ! وما قصة إنقاذ الخولاني من النار ببعيد؛ إذ أنقذه الله من النار التي ألقاه فيها الأسود العنسي، فخرج الخولاني لم تؤذه النار بل كانت عليه بردًا وسلامًا، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

سبحان البديع!

تأمّلتُ صور المخلوقات من بشر وطير وأسماك ونبات وحيوان، فوجدتُ فيها صورًا جميلة المنظر مبهجةً للنفس عدّلها الله وسوّاها، ووضع الأعضاء في المكان اللائق بها، فلو كانت عين الإنسان مثلًا في جبهته لفسد منظره، ولو مشى على يديه وكانت قدمه فوق لفسد حاله، فقلتُ: سبحان المصور الذي خلق وبرئ، وسبحان البديع الذي لا مثيل له ولا نظير له!

سبحان القدير!

سمعتُ من بعض الفضلاء المتخصصين في الأبحاث العلمية أنّ العلم اكتشف حديثًا أنّ البحار من تحتها في أعماقها نيران متقدة تدفئ الماء، فقد كان المتصور أنّه كلما نزلنا في أعماق البحار كلما قلّت درجات الحرارة للبعد عن الشمس، ولذا كان العلماء لا يتصورون حياةً في أعماق المحيطات السحيقة إلّا أنّهم وجدوا حياة طبيعية مستقرة في هذه الأعماق، وذلك بسبب حرارة هذه النيران التي تدفئ مياه البحار والمحيطات العميقة فقلتُ: لا أدري والله مِمَّ أعجب؟ أَمِنْ قدرة القدير الذي جعل الماء بجوار النار، فلا الماء يطفئ النار، ولا النار تبخر ماء البحر على الرغم من شدة غليانها؟ أم أعجب مِنْ رحمة الله وبديع خلقه حيث هيئ لكل مخلوق أسباب حياته؟ أم أعجب من كفر الكفار مع اطلاعهم على هذه الآيات العظيمة؟

سبحان العظيم!

علمتُ من دراستي الدنيوية أنّ العلم الحديث اكتشف أنّ الأرض والكواكب والشمس جزء من مجرة ومع هذه المجرة ملايين المجرات التي تسبح في نظام معه ملايين الأنظمة مثله، فهالني ذلك جدًا، وقلتُ: سبحان العظيم! فهذا كله بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي بالنسبة للعرش هكذا، والله فوق عرشه مستوٍ عليه،

فسبحان العظيم الكبير العلي الجليل ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الأنعام: ٩١)، والله ما يعقل هذا الأمر أحدٌ ثمّ يتكبر أبدًا، ولكنه الجهل الذي أعمى القلوب.

عظيم منّة الله على خلقه:

(أ) تأمّلتُ حال الجنين في بطن أمّه منذ أن كان نطفة، وما زال الله يخلق فيه الأعضاء، ويركِّب فيه الأخلاق والصفات حتى خرج من بطن أمّه، والله يرعاه وينمِّي جسده، فيكبر شيئًا فشيئًا، ويقوي جسده شيئًا فشيئًا، يمدّه ربه بالغذاء والمأوى ثمّ يَمُنُّ عليه بالعمل والزواج والذرية، ويقضي له حوائجه، ويُيَسِّر له أموره، ومع كل هذه النعم يطالبه بعبادات يسيرة لا تشق عليه، ففي إمكانه وطاقته أكثر منها بل ربما عصاه هذا المخلوق الذي ما به من ذرة إلّا وهي من فضل الله، ثمّ بعد ذلك يتوب الله عليه برحمته ويقبله، فسبحان اللطيف الرحيم!

(ب) تأمّلتُ حديث كتابة الملك ـ بأمر الله ـ لأجل العبد ورزقه وعمله، وهو في بطن أمّه، وكيف أنّه يكتب حينذاك الشقي والسعيد، ثمّ جلتُ بخاطري فيما صحّ عن النبي ﷺ: «**إنّ الله خلق الخلق في ظلمةٍ** ـ أي: وهم في عالم الذر في ظهر آدم ـ **وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأه ضلّ**»، فشعرتُ بفضل الله على المؤمنين من عباده حيث اختارهم للإسلام ووفَّقهم لهم وأنار قلوبهم به قبل أن يُوجِد أشخاصهم، ولم يكن حينذاك عملٌ للعبد ولا وسيلة، بل هذا محض فضل الله ومنّته، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى.

سبحان المهيمن!

تأمّلتُ الكون على سعته، وما فيه من نبات وأسماك وإنسان وحيوان، بل والجمادات كل ذلك تحت سيطرة الله وحكمه وقهره، بل ما في الكواكب الأخرى وما في أعماق البحار كلّ ذلك ما من ذرةٍ فيه إلّا وتتحرك بأمر الله وإذنه، فسبحان المهيمن

القهار الذي خضع لسلطانه كلّ مخلوق في البر والبحر والسماء! يدبر أمر الكون، ويهيئ شئون المخلوقات، أحاط بكل شيء علمًا، فسبحان الله!

سبحان الرزاق!

قرأتُ أنّ بعض الصالحين رأى طائرًا يبحث عن الطعام في الأرض ثمّ يطير به حتى يضعه أمام كهفٍ، وتكرر ذلك من الطائر فتتبعه ذلك الرجل حتى عَلَّم الكهف الذي يضع أمامه الطعام وانتظر؛ فإذا بثعبانٍ أعمى يخرج، فيأكل الطعام، فعجبتُ جدًا، وأذكر أنّي خطبتُ مرّةً فحكيتُها، وبكى بعض الصالحين الحاضرين، فسبحان الرزاق! وعجبًا للمخلوق المفكر العاقل الذي يخشى ضيق الرزق مع أنّ ربه قد تكفل به حتى للعجماوات التي لا تفكر ولا تعقل،، فكيف يخشاه هو مع ما فيه من عقل وفكر؟

سبحان الفتاح!

تأمّلتُ حال العلماء البارزين ممّن برع ونبغ سواءٌ في العلوم الشرعية أو في علوم الدنيا، وكيف فتح الله عليهم، ففهموا ما لم يفهمه غيرهم، فها هو ابن حجر يكتب في فوائد الحديث الواحد عشرات الفوائد، وربما لم نعلم نحن منه إلا فائدةً واحدة، وها هو شيخ الإسلام يتعلم في صباه ما لا يعرفه كثيرٌ منّا في شبابه وكهولته... وها هو الشيخ حافظ حكمي يموت وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وقد حصّل من العلوم الكثير، فقلتُ: سبحان الفتاح الكريم، ثمّ جلتُ بخاطري أكثر، فوجدتُ العجب العجاب، فها هي عشرات التفاسير، وفي كل واحدٍ منها فوائد ليست في الآخر، حتى في كتب المتأخرين من المفسرين؛ ربما كتب أحدهم من الفوائد ما ليس في كتب السابقين، كتفسير السعدي وتفسير الشوكاني وتفسير القاسمي، فسبحان الله! خيره عميم وفضله كريم، ولا يزال الخير في الأمّة إلى أن يرسل اللهُ الريحَ الطيبة لقبض أرواح المؤمنين.

obeikandl.com

سبحان الغفور الشكور!

تأمّلتُ قوله ﷺ: «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنّة**»، فقلتُ: كأنّ مآله إلى الجنّة؛ إذ كيف يُبنى له فيها، وهو من أهل النار؟ فتعجبت نفسي من هذا الفضل العظيم، ثمّ مرّت بي الأيام، واطلعتُ على أحاديث أخرى؛ كحديث: «**ما من عبد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات إلا أعطاه الله بكل مؤمن حسنة**» (صححه الألباني)، فكدت أن أطيش والله من التعجب، ثمّ زاد تعجبي من فضل الله الكريم لمّا قرأت الحديث الذي صححه الألباني: «**ما من عبد يقول: لا إله إلا الله والله أكبر لا إله إلا الله وحده لا إله إلا الله لا شريك له لا إله إلا الله له الملك وله الحمد لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما من عبد يقولها في ليلة ثم يموت في هذه الليلة إلا غفر الله له وما من عبد يقولها في يوم ثم يموت فيه إلا غفر الله له وما من عبد يقولها في شهر ثم يموت فيه إلا غفر الله له**»، وفي رواية: «**ما من عبدٍ يقوله في مرضه ثمّ يموت فيه إلاّ غفر الله له**»، فقلتُ: سبحان ذي الفضل العظيم، وسبحان الشكور الكريم!

النصر للإسلام:

تأمّلتُ حال المسلمين وضعفهم الآن، وكيف هانوا على الأمم، وكيف تكالبت عليهم الأمم، فتذكرتُ حال الإسلام في مكة في بداية الدعوة، بل حال كل دعوات الرسل في بدايتها كيف بدأت ضعيفة ثمّ قويت وانتشرت حتى تمكن الدين، فقلتُ: سبحان المبدئ المعيد! وفي الحديث: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»، وفي آخر: «**ما يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل عزًا يعز الله به الإسلام وأهله وذلًا يذل به الكفر وأهله**» (رواه أحمد وصححه الألباني).

obeikandi.com

إنّ ربي قريبٌ مجيبٌ:

تأمّلتُ قول صالح؛ لقومه وهو يدعوهم إلى الله: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود:٦١)، وكيف أنّه قال: ﴿رَبِّي﴾ ولم يقل: «ربكم» أو «ربنا» بل قال: ﴿رَبِّي﴾؛ وذلك لأنّهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان بذلك، ولا ذاقوا حلاوة العمل بمقتضى ذلك، ولكنّه؛ ذاق وعرف، وما أعظمها من نعمةٍ أن يستشعر المؤمنُ معيةَ الله وقربه وإجابته لدعائه!! فإنّ العبد إذا استشعر أنّه محاطٌ بحفظ الله وتأييده ونصره وهداه، وأنّ الله معه يوفقه ويسدّده، ويجيب دعاءه، ويقضي له حوائجه، إذا استشعر ذلك زالت عنه الهموم والغموم، وكان قرير العين، لسان حاله يقول: رضيتُ بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمّدٍ ﷺ رسولًا، ويقول: أصبحتُ ألتمس رضاي في مواضع القدر، ويقول: وأفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصيرٌ بالعباد، ويقول: حسبي الله لا إله إلّا هو عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم.

إنّني معكما أسمع وأرى:

تأمّلتُ قول الله عزّ وجلّ لموسى وهارون لمّا أرسلهما إلى فرعون وملإه: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه:٤٣-٤٦)، وقلتُ في نفسي: ما الظنّ برجلين يقول الله لهما: إنني معكما أسمع وأرى، فياليت الدعاة إلى الله يستحضرون ذلك في دعوتهم إلى الله؛ فلكل داعية إلى الله نصيبٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ كلّ بحسب إيمانه وتقواه، وياليتهم كذلك يربون الناس كبارًا وصغارًا على مراقبة الله على الدوام حتى يسهل عليهم استحضار ذلك واليقين به عند المآزق والصعاب، وما أجمل ما ورد عن بعض السلف: «أنّه كان يلقّن ابن أخٍ له ـ وهو صغير ـ أن يردد على قلبه على الدوام: الله ناظري، الله يسمعني، الله معي، فلمّا كبر ذلك الطفل نفعه ذلك أيما نفعٍ».